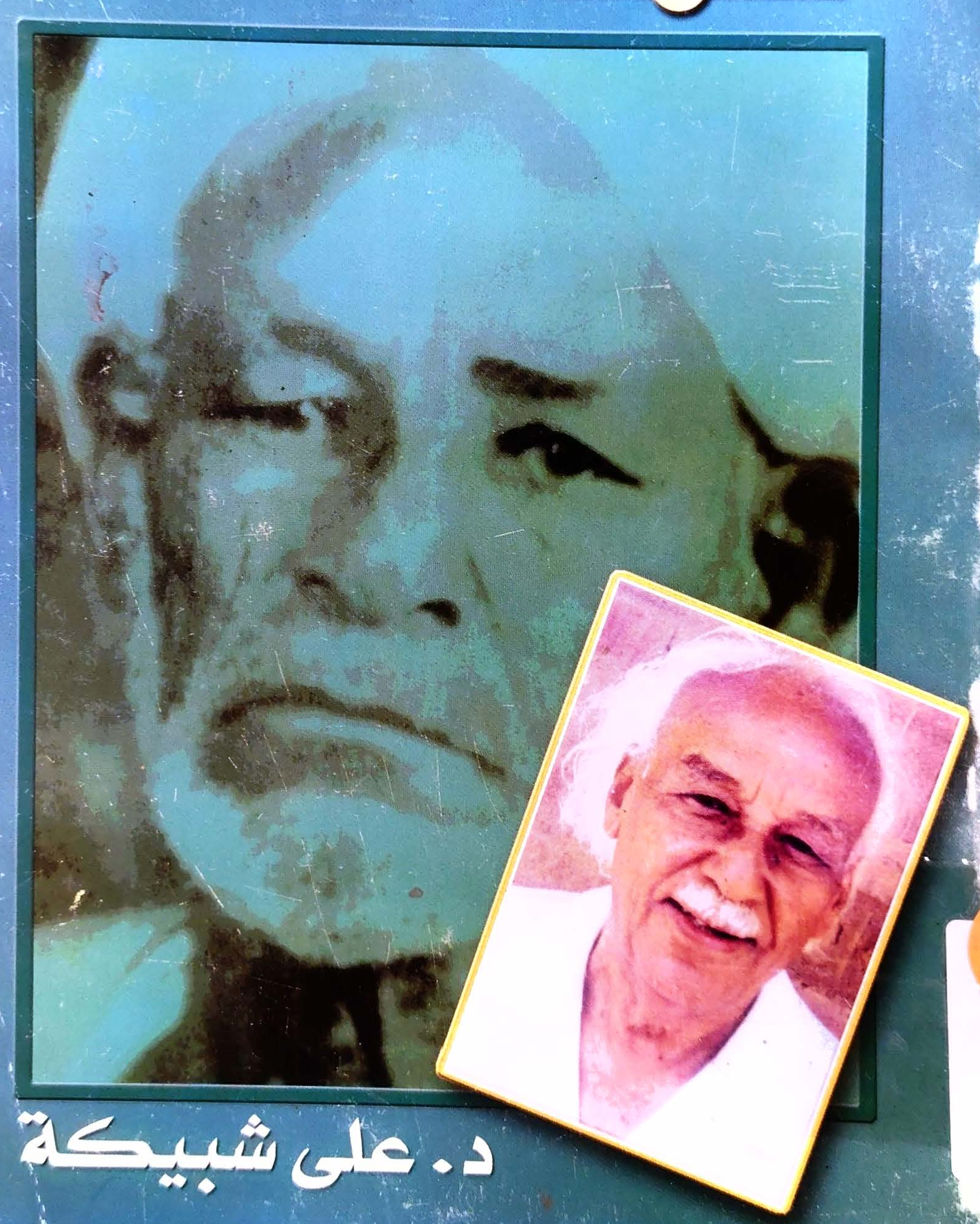
علمتني الأحفاد



د. علي شبيكة

علمتني الأحفاد

د.علي شبيكة

الطبعة الأولى

2001

علمتنى الأحفاد

■ ■

المؤلف

د. على شبيكة

■ ■

تصميم الغلاف

كامل جرافيك

■ ■

■ ■

رقم الإيداع بالقاهرة

الترقيم الدولى I.S.B.N

977 - 339 - 048 - 9

■ ■

رقم الإيداع بالخرطوم

٢٠٠١/١٢٤

■ ■

الإشراف العام

إلياس فتح الرحمن

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

قبل عدة أعوام استضاف التلفزيون السودانى الدكتور على شبيكة الشاعر والصيدلي القدير في برنامج أيام لها إيقاع وكان الحديث عميقًا دون تكلف ومن ضمن ما جاء في ذلك اللقاء عن نوادره مع والده العم دفع الله شبيكة طيب الله ثراه انه في ذات مرة طلب أن يشترى له والده بدلة جديدة ولم يكن هناك مناسبة تتطلب بدلة جديدة وفى لقاء مع الشيخ بابكر بدري قال شيخ دفع الله شبيكة " نحنا والله زمان ما كنا مجننين ابواتنا كده؟ " فكان رد الشيخ الجليل بابكر بدرى " هو ولد دفع الله شبيكة التاجر الكبير المعروف . أنت ولد منو ؟ "

فقلت في نفسي آنذاك نحن نتفاخر بان جدنا لأمنا الشيخ بـابكر بـدرى ولكـن جـد بابكر بدرى منو؟ أو حتى أبو بابكر بـدرى منـو ؟ لا نعرفـه والعـم دفـع الله شـبيكة بالرغم من صلة الرحم والقربى للشيخ بابكر بدرى لكنـه كـان عضـوا في أول مجلـس أمناء مدارس الأحفاد عـام ١٩٣٢ م واسـتمر إلى أن توفـاه الله وخلفـه ابنـه المـهندس المرحوم احمد دفع الله شبيكة وبعد رحيله تم اختيار الزميل الحفيد الأخ الدكتـور علـى شبيكة عضوا بمجلس أمناء جامعة الأحفاد للبنات وفي إحدى المناسـبات الـتي جمعـت الأساتذة وأعضاء المجلس والطالبات كان المتحدث الأخ على شبيكة عـن ذكرياتـه في الأحفاد وجاءت مؤثرة وصريحة أعجبـت الحضـور وأسـعدتهم وبعدهـا قـابلت الأخ الدكتور على شبيكة وقلت له أن أسلوبك في هـذه المحـاضرة ليتـه يسـجل في مؤلـف يحمل هذه الذكريات فقال لي أنا الآن بدأت إعداد كتاب عـن والـدي دفـع الله شـبيكة وسأفكر في أمر ذكريات الأحفاد فجاء هذا السفر الهام " علمتني الأحفاد " .

بدأ المؤلف ذكرياته عن الأحفاد وما قدمته له روضة الأحفـاد آنـذاك مـن الـدروس الأولية في المعاملة وحب المكـان في مرحلـة الطفولـة ولعلـه أراد أن يقـول أن الروضـة تختلف عن الخلوة التي كانت سائدة في تلك الفترة ولكن الشيخ بابكر بدرى افتتح أول روضة للأطفـال السـودانيين وكـانت المعاملـة تختلـف عـن معاملـة الشـيخ في الخلـوة والأدوات تختلف . حيث التعلم بالحاسب الذي وصفه المؤلف بألوانه الزاهية حتى انه في العطلة الصيفية كان يحن للمكان ويزوره ويتمنى أن تنتهي العطلة ليعود مرة أخـرى ألي ذلك الفصل بأضلاعه الثمانية في الجهة الغربية من مدرسة الأحفاد مرحلة الأسـاس

الآن وكلنا عشنا تلك الأيام ودرسنا في تلك الغرفة بالقرب من البوفيه ثم انتقل بنا المؤلف لمرحلة الدراسة في الأولية والوسطى والمشكلة التي أدت إلى تركه الأحفاد وانتقاله لمدرسة حي العرب الوسطى ولكنه هناك شعر بالغربة والاغتراب والشوق للعودة للأحفاد . ولما شعر أهله بذلك تم نقله للمدرسة الأهلية الوسطى ولكنه أيضا كان يشعر بأنه غريب فيها حتى عاد مرة أخرى ليلحق بالمرحلة الثانوية في الأحفاد والعود احمد ـ وبدا يسرد لنا تفاصيل عديدة عن مسيرته في الأحفاد الثانوية مع زملاء الدراسة ممن عاصروه والحرية والشفافية التي كانت تسود جو الأحفاد دون خوف أو إخفاء حتى انه انتقد ناظر المدرسة الثانوية العميد يوسف بدرى في جريدة الحائط التي كان يصدرها وجاء العميد يوسف بدرى وقرا النقد وضحك بل وشجعه في أن يستمر في النقد حتى يقدم النصح وانجع السبل للإدارة في المدرسة الثانوية . أضاف المؤلف ما كان يقوم به الشيخ بابكر بدرى والعميد يوسف بدرى في استيعاب جميع الطلاب المفصولين من المدارس الحكومية خلال المظاهرات والإضرابات وكيف تم استيعاب المائة وتسعة عشر طالب المفصولين من مدرسة خور طقت الثانوية واخرين من مدرسة حنتوب الثانوية هم اليوم قادة البلاد في الكثير من المجالات منهم على سبيل المثال الأستاذ دفع الله الحاج يوسف والبروفسير طبيب عبد الله هداية الله والمحامى وأمين عام اتحاد المحامين العرب فاروق أبو عيسى والمدير السابق في اليونيسيف الرشيد بحيرى والطبيب الكبير الدكتور احمد حسب الرسول ونائب مدير منظمة العمل في سويسرا الأستاذ القانوني فيصل عبد الرحمن الكبيدة وغيرهم كثر .

ويتحدث المؤلف عن المعلمين الذين أدوا الأمانة حتى أن لسان حاله يقول من علمني حرفا صرت له عبدا فيذكر العم عبد الكريم بدرى والشيخ مرغني السنجك والأستاذ سيد أحمد عبد الرحمن ثم ينتقل لأساتذة المرحلة الوسطى ـ الأساتذة إبراهيم إدريس ومحمد فضل المولى وحسن حامد البدوي وغيرهم كثر ثم في الثانوي الأساتذة من مصر ـ سعد الدين التاودى واحمد عبد اللطيف محسن وحسن السحترى . كما يشير إلى الرحلات التي قام بها ضمن مجموعة من طلبة الأحفاد إلى البان جديد في الأبيض و إلى القاهرة وحضور الزفاف الملكي للملك فاروق من الملكة ناريمان .

وأخيرا ينتقل إلى مرحلة الجامعة التي قضاها في الجامعة الأمريكية ببيروت ولعلني أشير هنا إلى أن الأخ الدكتور على شبيكة الذي التحق بكلية الصيدلة وزميله البروفسر مالك بدرى الذي التحق بكلية علم النفس هما الطالبان السودانيان الوحيدان اللذان كانا في قائمة الشرف لعميد الجامعة خلال جميع السنوات التي قضياها في كلياتهم من السنة الأولى حتى السنة النهائية وتخرجا بامتياز ولم يسبقهما أي طالب سوداني منذ عهد أول دفعة المكونة من الزعيم إسماعيل الأزهري وعبيد عبد النور وعبد الفتاح المغربي وكل الدفع التي جاءت من بعدها وحتى الآن . بل أن الدكتور علي شبيكة هو السوداني الوحيد الذي أحرز جائزة بنروز عند التخرج كأميز خريج من كليات العلوم الطبية (كلية الطب ـ كلية الصيدلة ـ كلية التمريض ـ كلية الصحة العامة) وهى جائزة تمنح بالإضافة إلي التميز الأكاديمي ، للصفات الشخصية والقيادية والمشاركة في إثراء الحياة الجامعية . وكتب اسمه في لوحة الشرف النحاسية المعلقة في

المبنى الرئيسي للجامعة وأمام اسمه كتب السودان . وكانت ولا تزال تلك هي المرة الوحيدة التي ظهر فيها اسم السودان في تلك اللوحة .

وفى يوم تخرجه تذكر ما علمته الأحفاد فقال هذه الأبيات التي جاءت في مقدمة كتابه عندما تحدث عن روضة الأحفاد حيث قال :

ومدرستي ومرتع ذكرياتي ستبقى ذكرياتك ما بقينا

وقاك الله عادية الزمان وصانك ذخر كل الطامحينا

ضياء تستنير به الليالي وعلم قد تضاء به القرونا

أساتذتي تحية راحل بفضل العلم كان لكم مدينا

وبعض الفضل قد يبلى وينسى وفضل العلم باق ما حيينا

ولو رمنا سداد النذر منه وقفنا دون ذلك عاجزينا

سنحمل في الرحيل لكم ودادا وحبا في ضمائرنا دفينا

أضاف المؤلف يقول " لعل هذا كان أول ما علمتني الأحفاد من دروس بل ومن أعظمها . "

وأنا هنا اقدم للقارئ هذا السفر الذي يعجز أي حفيد عن التعقيب عليه لأنه يعيد لنا ذكريات محببة ويؤكد لنا أن ما سجله الأخ الدكتور على شبيكة هو بكل صدق ما علمتنا الأحفاد . أقدمه لكل حفيد وحفيدة وللقارئ السوداني ليستمتع بالأسلوب

الشيق والقصص والنـوادر الممتعـة والشـكر لـلأخ علـى شـبيكة علـى هـذا المجـهود الأحفادى العظيم .

د. الطيب ميرغني شكاك

سكرتير اتحاد خريجي وخريجات الأحفاد

وعضو مجلس الأمناء

١٥/٢/٢٠٠١

مقدمة

اختار الكاتب لسفره هذا عنوانا جملة فعلية تتكون من فعل ماض ومفعول به وفاعل ، ثم أنث الفعل الماضي بتاء التأنيث . هل فعل ذلك لأن كلمة الأحفاد جمع تكسير أو فعله لسبب آخر يكمن في مدلول الكلمة وما تشعر به؟ إنها كلمة كغيرها من الكلمات ذات ظلال كثيفة وارفة تمتد وتمتد في الأسرة بل الأسر ـ الآباء ـ الأمهات ـ الأعمام ـ العمات ـ الأخوال ـ الخالات ـ الجدود ـ الجدات ـ وأبناء العمومة وبناتها وأبناء الخؤولة وبناتها . هذه الكلمة كمثيلاتها من الكلمات لها إيحاء فهي توحي بالعواطف الإنسانية عامة وحنان الإناث ورقتهنّ خاصة .

تحت هذه الظلال الكثيفة الوارفة وفي مثل هذا الإيحاء الإنساني الراقي يولد الحفيد ذكرا كان أم أنثى وفيه ينمو شهرا بعد شهر وعاما بعد عام ويتغذى مع الغذاء المادي أغذية روحية عاطفية يكبر فيها جسمه وتترعرع فيها غرائزه وملكاته . لعل الشاعر الكاتب أحس كل هذا في طفولته وأدركه بعد إن كبر فاختار العنوان وأنث الفعل مدفوعا غير واع بما لقي في تلك المؤسسة من حنان ورعاية .

الأحفاد مؤسسة بل أسرة فمن الذي أنشأها ؟ رجل جاء من ديار الرباطاب ومعه أسرته أبوه محمد ود بدرى ، حدثني أحد أخوالي قال انه رجل مسن ضرير اعتاد القعود أمام منزله في مدينة رفاعة وإذا مر به شخص سأله بلهجة سودانية قحة قائلا :- " ات منك " تأمل أيها القارئ الكريم ضمير المتكلم في أول السؤال ثم من الاستفهامية ثم الكاف . لقد صحب منشئ الأحفاد بعض أخواته - الحسنة - البتول - أم طبول - السهوة - حسب سيدها - ومن اخوته يوسف ، عبد الكريم و خضر . أقامت معه هذه الأسرة في منزل اتخذه في الحي الشرقي من مدينة رفاعة حيث مسجد المدينة ومدارسها والمركز وبيت المأمور وبيت المفتش الإنجليزي ، أقاموا معه وهو ناظر مدرسة رفاعة حيث عرف " بالناظر ود بدرى " وكان له اكثر من زوجة كل منهم ودود ولود ولدن له عددا من البنين والبنات فكبرت الأسرة واتسعت دائرة نفوذه ورعايته كل هؤلاء ، نعموا بإشرافه وعطفه وإشفاقه فصار بينهم مسموع الكلمة نافذ الرأي لأنه كان راعيا حازما عطوفا .

هذا هو الرجل الذي أنشأ الأحفاد ورعاها وكان نعم الراعي إذا خرج حمل لـه عـن القطيع وتبع قطيعا آخر أو فارق عتود إخوانه وسار في اتجاه آخر ، خرج الراعي باحثـا عنه ، ولما وجده لـم ينهال عليه ضربا بالعصا أو السوط بل امسك بأذنه واقتاده في رفـق الحازم وصرامة الحارس إلى حيث كان .

فعل ذلك في صمت وتصميم ، انه موقف الراعي الأمين العطـوف لا يرضـي عـن خروج بعض رعيته إلى غيره ولا يرضى عن تحول بعض أفراد جمعه إلى بقعـة أخـرى . هذا موقف الشيخ جد الأحفاد من المؤلف لما أخذه بعض أخواته إلى مدرسة أخــرى ، انه موقف تبدو فيــه الثقـة بـالنفس والطمأنينـة ثـم الحـرص علـى مـن يتـولى أمرهـم والإشفاق عليهم مما قد يتعرضون له إذا فارقوه . أما موقف الشاب العميد ابن الشـيخ منشئ الأحفاد لما جاء بالمؤلف أبوه والدم يسيل من فمه ، موقف قد يدل على القسـوة وقلة الاكتراث وشعر بذلك الشيخ والد المؤلف فاصطحب ابنه وعاد إدراجه ، إلا انـه موقف تربوي سليم حيث لـم يشأ العميـد الجديـد إن يظـهر الجـزع والهلـع والمؤلـف الطفل واقف على قدميه ، إن قلة الاكتراث في هذا المقام تقلل من الانزعاج والتخوف والأمر يسير لان المؤلف الطفل جاء ساعيا مع والده لم يلحق به ما يدعو لغير ذلــك ، انه موقف فيه رعاية وحرص على القيم وفيه تشجيع على الاحتمال والتحمل وحكمة في تناول الأمور ومعالجة المشاكل .

دخلت ذات مرة وأنا قادم من بخت الرضا إلى الشيخ العميد في مكتبه وهــو جـالس جلسته المعروفة حييته فرد التحية وقال لي : (تعال يا صـلاح يـا ولـدي قـالوا سـووك

مفتش) وهو أول من شغل هذه الوظيفة تفتيش مـدرس اللغـة العربيـة في السـودان ـ تحدثنا قليلا عن اللغة العربية والمناهج ثم انتقلنا إلى السياسة وهنا قال مبررا ميل بعـض الأحزاب السودانية إلى حكومة دولتي الحكم الثنائي ، قال :ـ (يا صلاح يـا ولـدى ، اتمحنبوا اتلبو) يريد إذا حرت في أمر أو شخص فاحسن إن تظهر له الـود وتـأخذه في الأحضان إنها حكمة اخذ الشاب العميد شيئا منها ، مـن ذلـك إننـا اجتمعنـا مـرة في مكتب عميد معهد الكليات التكنولوجية نناقش بعض مشـكلات المعـاهد والكليـات المتخصصة التي افتتحتـها حكومـة ثـورة مـايو وتنـاول المتحدثـون إضـراب الطـلاب واعتصامهم واحتدم النقاش فطلب يوسف بدرى الكلمـة ولمـا أعطيـت لـه قـال عـن سلوك الطلبة يجب ألا ننزعج بل علينا إن نتقبل الأمر ونصبر لان (ده دحيش فنجـط) يريد بذلك إن الطلاب في مثل هذه الأحوال مثل الجحش أبان ترويضه يرفض السـرج ويرفض اللجام ويضرب برجليه الأماميتين والخلفيتين وما علي المـروض إلا إن يصـبر ويواصل .

اعتاد الناس منذ قديم الزمان وفي جميـع بلـدان العـالم إرسـال أبنائـهم وبناتـهم إلى المدارس في الرابعة من العمر ليتعلموا ، وهو اعتياد حسن بل واجب ، واجب رسمي في بعض البلدان حيث يحاكم ولي الأمر إذا لم يدخـل ابنـه أو ابنتـه المدرسـة وواجـب اجتماعي لان الطفل وهو أو هي في المدرسة يلقى المجتمع وفي المجتمع الخشونة والرقـة والظلم والعدل وفي المجتمع أناس كالملائكة وأناس كالشياطين وآخرون لا إلى هـؤلاء و لا إلى هؤلاء هذه هي صنوف البشر التي يعج بها المجتمع وبدخـول الطفـل في هـذه

الصنوف يعتاد العيش فيها بل قد يألفه ، وفي المدرسة يتلقى الطفل دروسا في القراءة والكتابة ويتدرج في مراحل الدراسة وتكثر فروع المعرفة ويستمر في النهل منها إلى ان يفارق المدارس متخصصا في فرع من الفروع يعينه علي أمور دنياه ، لكنه ـ نعنى الطفل ـ قد يتعلم أشياء أخرى قد لا تكون حميدة أو يعتاد عادات مستنكرة أو مستحسنة

إن التعليم لا يعنى معرفة القراءة والكتابة ولا الإلمام بحقائق ومعارف في موضوعات أخرى ، إن التعليم أوسع من ذلك والطفل يتعلم قبل المدرسة ، يتعلم في أسرته من أبويه بالتقليد والمحاكاة والسماع . في هذا البلد يذهب الطفل إلى المدرسة روضة كانت أو أساسا أو غير ذلك وهو مسلم يعرف حقائق عن الإسلام ويتأدب بأدب الإسلام ويدخل المدرسة وقد رسخت العقيدة في ذهنه وقلبه .

إن هذا الكتاب سرد شائق سلس ، حوى واكتنف طفولة الشاعر الكاتب " على دفع الله شبيكة " من أحداث فيها الكثير من الطريف الممتع وما اعترض حياته من مشكلات نحمد الله إنها كلها اتسمت بالبساطة والطرافة ، إنها لم تستعصي على حكمة الشيخ الوالد وعلى همة الصبي الشاب المكتهل صاحب الكتاب . قص علينا المؤلف في أسلوب واضح وفي عبارة أنيقة خلت تماما مما يعيب تعبير الكتاب لا سيما الذين درسوا العلوم الطبيعية . برز الكاتب أمينا مخلصا وفيا لمعلميه وزملائه والمدارس التي درس فيها وفي ثنائه الجزيل العظيم الذي خص به الأحفاد . إن عليا نفسه يستحق الثناء العاطر على ما حمل كتابه بين دفتيه ولعله لا يكتفي بان يقول " علمتني

الأحفاد " يكون ذلك بين الناس معترفا بفضل الأحفاد بل يؤلف كتابا وينشره على الملأ .

لقد شرفني الأخ الكريم الشاعر البارع تقديم كتابه هذا للقراء أني أفخر بهذا واشكره وأقول إن عليا انفرد بالكتابة عن مساره التعليمي عامة وعن دراسته بل حياته بين الأحفاد وهم أحفاد الشيخ بالقوة أو بالفعل يعني أبناء بناته ومن هم في مثل سنهم من الآخرين والأخريات . إن هذا السفر يصلح لأن يكون إحدى اللبنات القويات الأوائل في بناء تاريخ التعليم في السودان عامة والتعليم الأهلي خاصة . إن الأحفاد ليست مدرسة أو مدارس فحسب وإنما هي أسرة نشأت برعاية حكيم وشبت ونمت وتطورت بحكمة راع .

بروفسير/ صلاح الدين المليك

كلمة الأحفاد

الأحفاد وهي تستشرف العيد المئوي منذ أن قام الشيخ بابكر بدري بفتح أول مدرسة أهلية لتعليم المرأة في منزله عام ١٩٠٧ ثم ألحقها بمدارس الأحفاد عام ١٩٣٠ كان يرمى لخلق جيل يتولى المسئولية ولخلق أم تربي النشء بعد أن نالت تعليمها ، والأحفاد اليوم بعد أن صارت جامعة الأحفاد وبعد أن خرجت من الأجيال من تحملوا قيادة وريادة هذه البلاد يسرني أن اقدم لسفر خطه أحد نماذجها الدكتور على شبيكة الذي نشأ وترعرع في الأحفاد ويشارك اليوم بمؤلفه "علمتني الأحفاد" بما ناله من تجارب وخبرة وعلم ، أهلته ليصبح من الشخصيات السودانية البارزة ليس في مجال مهنته الصيدلة وحسب وإنما في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والأدبية

ويضيف الدكتور علي بمؤلفه هذا ما قدمه آخرون عن الأحفاد وما نأمل أن يقدمه غيره ممن عاشوا في الأحفاد كطلاب وطالبات ومعلمين.

إن الأحفاد عاشت في عقل وفؤاد الشعب السوداني تبادله حبا بحب ووفاء بوفاء وما ذكريات دكتور علي شبيكة التي سكبها في هذا الكتاب بأسلوبه الممتع الرصين إلا دليل على ذلك .

قاسم بدرى

مارس ٢٠٠١

٦/ ٣/ ١٩٩٨

في روضة الأحفاد

أكاد لا أذكر شيئا في حياتي قبل روضة الأحفاد ـ بل إنني لا اذكر حتى اليوم الأول لذهابي للروضة! كأنما كان ميلادي فيها.

لا أذكر إنني رأيت طفلا يبكي في الروضة ويريد أن تأخذه أمه أو أبيه إلى المنزل كما يحدث هذه الأيام حين يحضر الأطفال في اليوم الأول والأيام التالية الى المدرسة أو الروضة للمرة الأولى مما يضطر أحد الوالدين الى قضاء ذلك اليوم في الروضة وربما جزء من الأيام التالية حتى يألف الطفل الروضة. ما السبب في ذلك؟

وكيف اختلفت روضة الأحفاد؟ وماذا كان يميزها حتى عن رياض الأطفال الحديثة في يومنا هذا؟؟

أترك البحث والإجابة عن هذه الأسئلة لمركز رعاية الطفولة المبكرة ومدرسة علم النفس بجامعة الأحفاد.

الأمر الذي اذكره جيدا إنني كنت لا أطيق مغادرة الروضة والمدرسة الأولية بالأحفاد في نهاية اليوم. أما في العطلة الصيفية فكنت دائم المرور عليها أطوف حولها ملامسا السياج الحديدي (الدرابزين) وكأنني أبثها أشواقي واستعجالي للرجوع إليها مرة أخرى خاصة أن الروضة كانت تبعد عن منزلنا بحوالي ثلاثمائة متر فقط.

هل كان ذلك بواكير لما ظهر في طبعي مؤخراً وهو إننى ما ألفت أحدا أو مكانا إلا وصعب علي فراقه؟

وفى كل مرة كان لا بد من وقفة عند المكان الذي كانت حبوبه "النعيمة" تبيعنا فيه الفول والنبق والتسالي من خلال السياج في الفسحة.

كانت الروضة نزهة جميلة ومرتعا للعب نستقي من خلالها مبادئ العلوم والمعرفة دون أن نشعر بذلك. لم تكن هناك عقوبات لمن يقصر في التحصيل - ولكن كانت هناك جوائز من بسكويت وحلوى لمن يظهر براعة في ذلك.

وكان هناك (الحاسوب) ذو الألوان الجميلة والذي يشبه الآلة الحاسبة التقليدية التي يستعملها اليابانيون عباقرة التقدم العلمي والتكنولوجي. ومن خلال هذه الآلة تعلمنا مبادئ الحساب والجمع والطرح. ولا يفوتني أن اذكر أن كل ذلك كان من خلال رعاية الشيخ بابكر بدري المباشرة وغير المباشرة.

بالقطع لم يكن ولعي واشتياقي للرجوع للروضة أو المدرسة الأولية نتيجة حرمان من اللهو واللعب في أثناء العطلة الدراسية، فقد كان الحي - حي الهاشماب - عامراً بأنماط من الأطفال يشكلون مجموعة من الأصدقاء يحلو اللعب والسمر معها.

كنا أحيانا نأخذ الأغنام من منازلنا بدلا من الراعي ونذهب بها إلى الخلاء حيث تنمو الحشائش.

والخلاء في ذلك الزمن ما وقع غرب حي بانت "القديمـة" بأمدرمـان - أي منطقـة إستاد المريخ وما حولها أو في المنطقة التي تقـع شـرق دار الرياضـة ومدرسـة الدايـات حتى شاطئ النيل بأمدرمان - حيث تكثر الحشائش خصوصاً في زمن الخريف.

وكان قائد مسيرة الرعاة هو "جاد السيد" الذي كان يسكن في حوش شيخ إبراهيم هاشم المجاور لحوش دفع الله شبيكة. لا أذكر بالضبط ما هـو وضـع جـاد السـيد في ذلك الحوش - وليتني بدأت في كتابة هذه السطور قبل شـهرين إذاً لكنـت قـد سـألت الحاجة زينب بت إبراهيم رحمها الله.

المهم لم تكن المهمة قاصرة على الرعى فقط بل كنا نمارس حش النجيلة والحشائش الأخرى لنأخذها "فى شوالات" جوالات عند العودة معنا. وكان يصادفنا الكثير من الحسكنيت وتعرفنا من خلال ذلك على أنـواع الحشـائش المختلفـة مثـل السـعدة وأم لبينة... وغيرها.

وفى هذا المجال كان قائد المسيرة هـو الأخ والخبـير الزراعـي لاحقـا الحـاج حسـن الحاج "الشهير بالحاج كبر". فوالده حسن الحاج - المعروف بحسن الجريف - كان مـن أهالي الجريف غرب والتي كانت تعتبر ضاحية مـن ضواحـي الخرطـوم يذهـب إليـها الحاج في نهايـة الأسـبوع وجـزء ا مـن العطـلات المدرسـية ليمـارس الزراعـة والـتي أصبحت مستقبله الدراسي والعملي - إذ تخصص في مدرسة مشـتهر الزراعيـة بمصـر وعمل بمشروع الجزيرة حتى نال المعاش.

ولقرب حي الهاشماب من النيل كنا نرتاد النيل للسباحة سراً، إذ أننا كنا نمنع مـن الذهاب إليه خوفا علينا من الغرق وذلك لصغر سننا وجهلنا بفن العـوم. وفـى كـل مرة كانت تلحظ الوالدة "عليـها رحمـة الله" أثـار السـباحة بأرجلنـا - ننـال النصيـب الأوفى من سير "المفحضة" وإلا كان البديل إخبار الوالد - وهناك يكون الجلد بجريدة نخل خضراء تقطع لتوها وتقلم أطرافها فتصبح أحر من الخيزران.

في هذا المضمار ـ مضمار السباحة ـ كانت القيادة لعبد الكريم عثمان وشقيقه إبراهيم عثمان. وهما من أبناء حلفا جاء ا إلى أمدرمان بصحبة والدتهما القابلة الشهيرة آنذاك "فاطمة حلفا" وقد أجادا فن السباحة لدرجة لن يساورك الشك أنهما ولدا داخل النيل. رحمهما الله ورحم والدتهما الحاجة فاطمة حلفا فقد أحسنت تربيتهما عقب وفاة والدهما فكان النتاج عبد الكريم "اسمه أصلا عوض الكريم" عثمان عبقري المنلوج والفكاهة بالسودان والذي اشتهر مؤخرا باسم "بلبل" أما إبراهيم عثمان وشهرته في الحي كانت "حمور" نسبة للونه الفاتح كأمه فقد اشتهر بلقب "كمر" في خور طقت الثانوية وعقب تخرجه من الكلية الحربية.

إلى جانب فن العوم ـ كان بلبل عبقريا في لعب "السيجة" وقلما يُغلب. وفى مرحلة متأخرة شاهدت لأول مرة مجلة البعكوكة الفكاهية والتي كانت تصدر في مصر ـ شاهدتها عند بلبل وأدمنت قراءتها بعد ذلك كلما وقعت يدي على عدد منها.

ولعله من المناسب أن أذكر هنا داؤود زوج شقيقتهم الكبرى الذي كان يدير بوفيه الإذاعة وكنا دائما نتصيد الفرص ليحدثنا عن الإذاعة وعن الفنانين مدفوعين لذلك بغريزة حب الاستطلاع الطفولي والرغبة في معرفة أي شئ عن الفنانين.

أيضا كان هناك لعب البللي ـ والضقل "سجك" وفى المساء "الرمة وحراسها" و"هولب لب" و "حرامية وعساكر". وكرة القدم وقد كانت دار الرياضة بأم درمان ـ ومازالت ـ عبر شارع الإسفلت "شارع الموردة" على بعد أمتار من حي الهاشماب.

غير إنني كنت أتفرد بهواية أخرى وهى اصطحاب والدى في سيارته في بعض أيام العطلة المدرسية. ومن هنا نما حبي للسيارات وبدأت أحلم بقيادتها حتى تمكنت في مرحلة لاحقة من إقناع سائق اللوري الذي كان يعمل بالمحل بالخرطوم أن يسمح لي أن أجرب قيادة اللوري حيث ركبت معه وهو ذاهب إلى الاسكلة لإحضار سكر على

ما أذكر وهكذا نجحت في قيادة اللوري قبل السيارة الخاصة وأنا في الحادية عشرة من عمري وبالطبع تم ذلك وأنا واقف.

رغم كل هذه الألعاب الجميلة ومراتع الطفولة السعيدة في أثناء العطلات الدراسية - إلا أن فرحة عودتي إلى الأحفاد في نهاية العطلة كان لها طعم خاص ومختلف جدا.

كان في الأحفاد مسرح تقدم فيه تمثيليات بين الحين والآخر يشارك بالتمثيل العديد من الأساتذة أذكر منهم الأستاذ الفنان سيد أحمد عبد الرحمن " شيخ سيد أحمد " والأستاذ عبد الخالق حمدتو والعم عبد الكريم بدرى. وآخرين وقدمت مسرحيات شهيرة في ذلك المسرح منها مجنون ليلى وعبد الرحمن الداخل. وغيرها من المسرحيات العالمية ألممنا بها ونحن في تلك السن المبكرة.

وهكذا غرست في الأحفاد وأنا في الروضة والمدرسة الأولية حب المدرسة ومعاهد الدراسة وحب المعلمين والنظر إليهم دائما كآباء ومثل أعلى يقتدي به. وظل ذلك الحب يلازمني حتى الجامعة وقد قلت في قصيدة ألقيتها في حفل التخرج بالجامعة الأمريكية وهذه القصيدة أول قصيدة كتبتها فى حياتى:

ومدرستي ومرتع ذكرياتي ... ستبقى ذكرياتك ما بقينا
وقاك الله عادية الزمان ... وصانك ذخر كل الطامحينا
ضياء تستنير به الليالي ... وعلم قد تضاء به القرونا
أساتذتي تحية راحل ... بفضل العلم كان لكم مدينا
وبعض الفضل قد يبلى وينسى ... وفضل العلم باق ما حيينا
ولو رمنا سداد النذر منه ... وقفنا دون ذلك عاجزينا
سنحمل في الرحيل لكم وداداً ... وحباً في ضمائرنا دفينا

لعل هذا كان أول ما علمتني الأحفاد من دروس ومن أعظمها.

ولعل أهل التربية والتعليم خير من يعرف الفرق بين أن يكون التلميذ محبا للمدرسة والمعلمين وزملائه وبين أن يكون ذهابه إلى المدرسة عملا إجباريا يذهب إليها مكرها خوفا من العقاب إذا تغيب ؛ وتفاديا لغضب والديه وذويه إذا تخلف في الدراسة والتحصيل. وهذا بالطبع ينطبق علي كل عمل في الحياة ؛ فالعمل الذي يقوم به الإنسان من منطلق الحب والرغبة الأكيدة دائما ما يتميز بالإجادة والتفوق بخلاف العمل الذي يقوم به الإنسان وهو مكره أو لانه يشعر بأنه ضروري لحياته ومعيشته فيكون بذلك واجبا ثقيلا علي نفسه.

إعداد رجال المستقبل وقادة المجتمع

قام على بك الجارم ـ وكان كبيرا للمفتشين بوزارة المعارف المصرية ـ قام بزيارة للسودان كممتحن خارجي للمدارس العليا سنة ١٩٤٢ .

أعدت الأحفاد حفل استقبال بهذه المناسبة وكان ضمن فقرات البرنامج أن يلتقي طفلان صدفة في الطريق وتلفت الأنوار وبهرجة الحفل أنظارهما فيسأل أحدهما الأخر عما يجرى ـ ويجيب الآخر معرفا بالحفل وبعلى بك الجارم ويرحبان بزيارته متمنيين له طيب الإقامة .

اختير لهذه الفقرة طفلان هما صلاح اليسع خليفة وشخصي وتم تدريبنا وحفظنا أدوارنا جيدا . وجاء أداؤنا لهذا الحوار ممتازا نال إعجاب الضيوف والحاضرين خصوصا وان قصر قامتينا كان ينم على اننا دون السابعة من العمر . وبعد التصفيق

الحار استدعانا على الجارم و أجلسنا إلى جواره وتناولنا ما لذ وطاب مما قدم في الحفل .

ربما كانت تلك التجربة هي الأولى بالنسبة لي لأقوم بتمثيل دور والقاء كلمات محفوظة أمام حفل به شخصيات مهيبة مثل ذلك الحفل . وحتما كان للتدريب أثره الكبير والذي ظهر في حسن الأداء وعدم تهيب جمهرة الحاضرين . ولا شك أن دفعنا في هذه السن المبكرة لمثل تلك المواقف ـ أكسبني مستقبلا القدرة على مخاطبة الآخرين برباطة جأش في كثير من المواقف التي قمت فيها بمثل هذا العمل .

وكان ذلك الحفل سببا في اختياري لاحقا وفى مناسبة مماثلة أن أقوم بتمثيل دور الطفل الذي يحنو على الذئب ظنا منه انه راع أعمى يرجو المساعدة فيغدر به الذئب . هذا التدريب المبكر على مواجهة الآخرين وعدم تهيب جمهرة الحضور ـ كان له أثر كبير في حياتي وأعانني على الكتابة والتحدث بكل صدق فيما أرى في كثير من المواقف دون توقع لعواقب غير محمودة قد تنتج من ذلك . وهذا أمر قد لمسناه في الشيخ بابكر بدرى منذ نعومة أظافرنا وعرفناه في العميد يوسف بدرى لاحقا في المدرسة الثانوية وبعدها .

في السنة الأولى من المدرسة الوسطى كان الأستاذ كمال إبراهيم بدرى يدرسنا مادة اللغة العربية . والأستاذ كمال كان شاعرا وخطيبا متمكنا ينقلنا إلى أعماق المعاني والدروس بنبرات ساحرة وبأسلوب محبب للمستمع يدفعنا نحن الأطفال لمحاولة تقليده . وقد لمست نفس هذا الاتجاه في السنة التالية بمدرسة حي العرب الوسطى عند الأستاذ بابكر احمد موسى .

في يوم من الأيام أعلن الأستاذ كمال بدرى إن الحصة القادمة ستكون مسابقة في الإلقاء ـ وعلى كل تلميذ أن يختار قطعة من كتاب المطالعة أو أي كتاب أخر ليلقيها في

الفصل. وعند ما حان وقت المسابقة كنت قد أعددت مقطوعة تدربت على إلقائها في اليوم السابق. ولست اشك أن التدريب في التمثيل والإلقاء الذي كنت قد تلقيته في المدرسة الأولية كان له الأثر الكبير في أدائي ذلك.

عند إعلان النتيجة جاء في المرتبة الأولى تلميذ اسمه محمد سعيد (على ما أذكر) لم يكن معنا في المدرسة الأولية وكان يكبر معظمنا بشكل واضح. وجئت في المرتبة الثانية وسر الأستاذ كمال بدرى لذلك جدا نظرا لأنني كنت أصغر التلاميذ سنا. وأهدانا الأستاذ كمال بعض الكتب كجائزة لنا. وكان نصيبي كتاب "الملك لير" وكتاب آخر لا أذكر أسمه الآن. منذ ذلك اليوم أخذت المنابر تستهويني وان لم اكن من فرسانها في يوم من الأيام - إلا إنني أصبحت مولعا بالخطابة والخطباء وإلقاء الشعر وكنت وما زلت أجد متعة كبيرة في الإصغاء والإستماع. وفى السنة الرابعة الثانوية كان مستر كوك يدرسنا الأدب الإنجليزي وأذكر أن كتاب توماس هاردى The Trumpet Major كان مقررا ضمن مقررات امتحانات شهادة جامعة كيمبردج. وفى إحدى المرات وكان قد طلب منا أن نكتب مقالة (ESSAY) عن فصل من الكتاب - أحضر الكراسات بعد تصحيحها ووزعها على أصحابها واستبقى كراستي وطلب من الفصل الإصغاء واخذ يقرأ ما كتبت وكرر ذلك مرتين اخريين لاحقا.

كان لذلك وقع عظيم في نفسي شجعني ودفعني للاهتمام بالأدب الإنجليزي مما أفدت منه كثيرا في مستقبل حياتي. حقيقة أن المتفوقين منا كانوا يجدون التشجيع من المعلمين في الأحفاد منذ دخولنا الروضة. ولا أظن أحدا يجهل مدى أهمية التحفيز لكل مجيد في الأعمال والإنتاج. ولا أرى أن هذا يحتاج إلى شرح اكثر.

لست أدري أن كان هناك الآن في مدارسنا مثل هذا الاهتمام بأعداد الأطفال أعدادا يؤهلهم للقيام في مستقبل حياتهم بوظائف قيادية في مجتمعاتهم وهيئآتهم المهنية

والسياسية أم أن هذا متروك لظروف كل طفل. كما أنني لست أدري ان كانت ظروف المدرسين هذه الأيام تسمح بمثل هذا الاهتمام وذلك التفاني في التربية أم أن الاهتمام بالدروس الخصوصية والمشاكل المعيشية أصبحت شاغلهم الأول!!

في السنة الثانية بالمدرسة الثانوية كان الأستاذ احمد عبد الله المغربي لا يزال يدرسنا اللغة العربية. ولما كنت أظن أنني أجيد كتابة موضوعات الإنشاء فقد ذهبت إليه يوما محتجا على إعطائي درجات تتراوح بين ١١ و ١٤ من عشرين بينما كان يعطى الزميل عبد الله أحمد الأمين ١٥ و ١٦ وأحياناً ١٧ من عشرين.

كنت أتوقع أن يقول لي الأستاذ مغربي أن عبد الله أحمد الأمين يكتب أحسن مني في مواضيع الإنشاء ولكنه لم يفعل ذلك وأكاد أتخيل الآن مدى الإحباط الذي كنت سأصاب به لو فعل.

بدلا من ذلك قال لي الأستاذ مغربي اذهب وافتح درج عبد الله احمد الأمين وانظر في الكتب والمجلات التي يقرؤها عبد الله خارج المقررات الدراسية ثم ارجع وقل لي رأيك.

وبالفعل ذهبت ووجدت كتبا لكبار الأدباء ومجلات أدبية وثقافية ولم يكن بدرجي شيء مماثل لها.وبالطبع لم ارجع إلى الأستاذ مغربي. فقد أدركت ما رمى إليه وتذكرت انه في السنة الأولى كان يعطى حسين بازرعة ١٨ و ١٩ من عشرين في مواضيع الإنشاء. ولما كان حسين بازرعة يجاورني في الدرج فقد كنت أجد عنده كتبا مثل "كَرْمٌ على درب" لميخائيل نعيمة وأخرى لجبران مع دواوين شعر لشعراء المهجر وغيرهم. وكنت اعرف أن لحسين بازرعة أخ يدعى على عنده مكتبة معروفة في بورتسودان يقضى فيها حسين معظم أيام العطلات المدرسية مطالعا ما تحوى ومساعدا أخاه في إدارة المكتبة. وكان الدرس بالنسبة لي ببساطة انك إن أردت أن تكون كاتبا أو

أديبا فعليك أولا أن تقرا الكثير مما كتبه كبار الأدباء. وان أردت أن تكون شاعرا فعليك بدواوين الشعر تنهل من بحور الشعر فيها إن حباك الله بموهبة الشعر.

وهكذا رسم لي أحد أساتذة الأحفاد الأفذاذ طريقاً لمست جدواه وعرفت قيمته فيما استقبلت من حياتي وأنا أتحسس دربي في مجال الأدب والشعر. فعل ذلك دون أن يذكر لي أنني ما زلت بحاجة إلى الكثير من القراءة والاطلاع ولو فعل فربما جاءت نصيحته برد فعل معاكس لما يرمي اليه.

لكم التجلة والاحترام أساتذة الأحفاد العظام ونفع الله بعلمكم أجيال هذا البلد المتعطشة للعلم والمعرفة.

ولكن لا ننسى انه كان في الأحفاد وراء هؤلاء الأساتذة الأفذاذ مرب وعالم عظيم هو الشيخ بابكر بدري، أورد هذه التجربة التي كتب عنها الأستاذ احمد عبد الله المغربي (عضو مجمع اللغة العربية السوداني) في العدد الرابع من مجلة المجمع عام ٢٠٠٠:

" قبل أن اعمل بالتدريس وكنت وقتها طالبا أتدرب كان على ذات يوم أن ادرس في الثالثة الوسطى بمدرسة الأحفاد (المستثنى بالا) ومع بداية الزمن جاء (طابور) من جنود قوة دفاع السودان بموسيقاهم من الشارع الرئيسي الذي تطل عليه المدرسة فأحسست بتطلع التلاميذ لمعرفة الأمر فأخرجتهم للشارع واستمتعوا بالمنظر للجندي السوداني والموسيقى العسكرية واعدتهم لحجرة الدراسة بعد أن ابتعد الطابور. وبعد الدرس أرسل الشيخ بابكر بدري عميد الأحفاد في طلبي وما أن رآني عند الباب حتى صاح في وجهي (ما هذه الفوضى) أجئت للتدريب في مدرستنا أم جئت لاحداث هذه الفوضى فابتسمت ورجوته أن يسمح لي بشرح الموقف فقال ما معناه (هات ما عندك) ورجوته أن يذهب بنفسه ليتأكد أن التلاميذ فهموا ذلك الدرس رغم انه من الدروس

الصعبة كما جازفت وطلبت منه أن يسال المدرسين الذين لم يخرجوا تلاميذهم لرؤية الطابور. وأسعدني كثيرا أن تلاميذي كانوا قد فهموا الدرس فهما جيدا وان المدرسين اعترفوا له بأنهم أخفقوا في جذب انتباه التلاميذ لدروسهم. وهنا أرجو أن أحيى ذكرى المربى العظيم بابكر بدري الذي كان لبعض الناس شخصا متحجرا لأنه في ذلك الموقف لم يقتنع فقط بأني لم أخطئ ولكنه وجه كل مدرسي المدرسة في أي ظروف مماثلة أن يضحوا ببعض دقائق يشبع فيها حب الاستطلاع عند الصغار بدلا أن يضيع الدرس كله في شرود ذهني".

لا أشك مطلقا أن ذلك النوع من التربية والتوجيه الذي تلقيته منذ صغرى في الأحفاد ساعدني كثيرا في مستقبل حياتي الجامعية والعملية من بعدها وأهلني لأتبوأ مناصب قيادية كثيرة استطعت من خلالها أن أساهم في تقدم الهيئات والكيانات التي كنت أنتمي إليها وأعمل بها.

لم يقتصر هذا الأمر علي وحدي بل أنه كان دائما من دواعي سروري وفخري أن أرى زملائي في الأحفاد يتبوأون مناصب قيادية وكان الكثير منهم روادا في مجالاتهم المهنية والعلمية. وبما أن هذا الكتاب يضيق عن ذكر الذين أستطيع أن أحصيهم في هذا المجال فأنني آمل أن تخرج علينا الأحفاد يوماً ما بمرجع يضم أسماء الخريجين الذين أثروا الثقافة والعلوم والسياسة وساهموا في رقي وتقدم السودان في شتى المجالات محلياً وعالمياً.

يومان في مدرسة الموردة الأولية

في أواخر العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين ـ كان الرأي السائد أن مدارس الحكومة الأولية والوسطى تمتاز على المدارس الأهلية (وما يهمني هنا هو الأحفاد) وتتفوق عليها في مستوى المعلمين وتتيح للتلاميذ فرصا اكبر للالتحاق مستقبلا بالمدارس العليا والتعليم الجامعي.

ومن هذا المنطلق عمل اخوتي الكبار على أيجاد خانة لي في مدرسة الموردة الأولية. خاصة وانهم من خريجي مدرسة الموردة الأولية علاوة على قربها من المنزل إذ أنها تقع مباشرة جنوب دار الرياضة بأم درمان على الشارع الرئيسي (شارع الزلط) وهو شارع الموردة حاليا. وكان لمدرسة الموردة شهرة وطابع خاص. أولا لموقعها في حي الموردة الشهير في ذلك الزمن بوجود عدد من فتوات أم درمان فيه. (طبعا هذا لا ينفى

وجود شخصيات مميزة في الموردة كان لها أثر كبير في إثراء حياة السودان وتاريخه في شتى المجالات الأدبية والفنية والسياسية شغلت أرفع المناصب في الدولة). الشيء الثاني والمهم خاصة بالنسبة لي ـ أن أعمار التلاميذ كانت كبيرة في مجملها. وكما ذكر لي الصديق العزيز الدكتور حسين سليمان أبو صالح وهو من خريجي مدرسة الموردة الأولية، أنهم كانوا يلتحقون بالمدرسة بعد إتمام الدراسة بالخلوة وغالبا ما يكون ذلك بعد الثامنة من العمر في الوقت الذي كنت قد التحقت بالمدرسة الأولية في الأحفاد في حوالي الرابعة من عمري.

ولكن الشيء الأكثر شهرة بامدرمان عن مدرسة الموردة الأولية ماكان يعرفه جميع التلاميذ في ذلك الوقت و هو أن ناظر مدرسة الموردة الأولية هو ذلك الرجل الأسطورة "شوقي الأسد".

كان شوقي الأسد رجلا ضخم الجسم ذا بشرة سوداء وأطراف ضخمة جدا معروفا بقوة خارقة له نظرات حادة تبعث الخوف في نفوس التلاميذ والمدرسين على حد سواء. ومشهور عنه انه في غياب فراش المدرسة ذات يوم قام بقرع الجرس النحاسي لطابور الصباح فكسره.

وقد عرفنا شوقي الأسد منذ نعومة أظافرنا فقد كان يسكن حي الهاشماب وتزوج كريمة الشيخ عبد الله أبو القاسم.

وكنا نراه في الغدو والرواح وهو يرتدي القفطان والجبة والطربوش والعمامة الأزهرية وتهتز الأرض تحت وطء قدميه. ومعروف عن شوقي الأسد انه كان قائد كتائب المتطوعين لحرب فلسطين عام ١٩٤٨. الشيء العجيب أن ذلك الجسد القوي والأيدي الضخمة بالغة القوة كانت تحمل أنامل فنان وخبير بالخطوط لا يشق له غبار. وكانت معظم لافتات المحلات التجارية بسوق امدرمان تحمل توقيع شوقي الأسد.

اذكر ونحن في مدرسة الأحفاد الثانوية أن قام أحد التلاميذ بكتابة عبارات في شباك الفصل يهزأ بها من " الألفة " ولما لم يعترف أحد بكتابة العبارات؛ أمر العميد يوسف بدري باستدعاء خبير الخطوط شوقي الأسد لمعرفة الكاتب بعد المقارنة مع كراسات التلاميذ. وكانت تلك هي المرة الأولى التي اسمع فيها واعرف أن هناك خبراء للخطوط يمكنهم مقارنة ومعرفة كاتب أي كتابة، ومن ضمن هؤلاء كان شوقي الأسد.

غاية الأمر ـ مضى اليوم الأول في مدرسة الموردة ولم أتعرف على أي من المدرسين أو التلاميذ ما عدا من كنت اعرف سابقا من أبناء حي الهاشماب ولم أر ناظر المدرسة ولا أستطيع أن اجزم ألان إن كان في ذلك الوقت شوقي الأسد أم عبد الله عبد المحمود أبو شامة الذي خلفه ناظرا لمدرسة الموردة الأولية.

في منتصف نهار اليوم الثاني وقفت سيارة بباب المدرسة وخرج منها الشيخ بابكر بدري ودخل المدرسة وتوجه نحو الفصل مباشرة سائرا بجسمه الضئيل تمشي أمامه مهابة لاقبل لاحد بمواجهتها ؛ دخل الفصل وتتطلع في وجوه التلاميذ وما أن رآني حتى جاء وامسك بأذني دون قسوة واقتادني خارج الفصل ألي العربة مباشرة دون أن ينطق كلمة واحدة ودون أن يسمع كلمة اعتراض من أحد ـ أنزلني في مدرسة الأحفاد ودفع بي إلى فصلي. وهكذا كانت تلك المحاولة الأولى والأخيرة لاخوتي الكبار في إخراجي من الأحفاد إلى أن خرجت منها لاحقا وأنا في السنة الثانية بالمرحلة الوسطي مما سيأتي ذكره لاحقا.

لست أشك مطلقا أن الشيخ بابكر بدري رحمه الله كان يعلم تماما أن ما كنت أتلقاه من علوم ومعرفة في الأحفاد لم يكن متاحا لنا في أي مدرسة أخرى نسبة لما نشأنا فيه وتربينا عليه في الأحفاد. وكان هذا بالفعل شعوري حين انتقلت لاحقا إلى مدرسة

حي العرب و الأهلية المتوسطتين. كانت الطريقة التي أعادني بـــها الشـيخ بـابكر إلى الأحفاد تنم بغض النظر عن العلاقة الأسرية ـ أن الرجل لا مجال عنــده لأي نـوع مـن التفاوض وما كان له أن يتنازل لغيره عن بـذور زرعـها ورعاهـا لتكـون حديقـة علـم المستقبل التي ظل يناضل طويلا لغرسها. وكيف يمكن أن يترك أمثالي ليذهبوا إلى غـير الأحفاد وإلا فلمن انشأ الأحفاد منذ البداية ـ هذا إلى جـانب أن والـدي بالإضافـة إلى الصلات الأخرى كان عضوا في أول مجلس أمناء مؤسسي الأحفاد وكـان ممـن وقعـوا التعهد بالضمان المالي للدولة لأي عجز في ميزانية الأحفاد بلا حدود!!.

وكم مرة داعب خيالي إمكانية التقاء شوقي الأسد بجسمه الضخـم العـاتي بالشـيخ بابكر بدري وهو يقتادني خارج المدرسة!! غير أنــني كنـت دائمـا أوقـن أن صـاحب ذلك الجسم الضئيل والذي خاض به حروب المهدية ضد اقوي جيوش ذلك العصـر ـ لم يكن لأحد أن يعترض سبيله حتى وإن كان جيشا من الأسود.

لقد كان لتلك الحادثة اثر عميق في نفسي. ففـي المقـام الأول كـان لاهتمـام الشـيخ بابكر الخاص بشخصي واكتشافه السريع لتغيبي وتقصي الأمــر ؛ اثـر كبـير في زيـادة حبي واحترامي له وللأحفاد.

ثانيا بالرغم من قصر المدة (يومان) ـ لكنها كانت كافية لإدراك الفرق الكبـير بـين شعور الحب والمرح والانتماء الذي كنا نعيشه في الأحفاد وبين أجـواء الغربـة والتوتـر والخوف التي كانت طابع بعض المدارس الأخرى. وربما أتعرض بشــيء من التفصيـل لهذا الأمر لاحقا.

هكذا كان نـهج الشيخ بابكر بدري في الأحفاد وكان كل تلميذ يشعر كأنه الوحيـد في الفصل وانه مركز الاهتمام والمقصود بكل تلك الــدروس. هـذا الاهتمـام والصلـة الشخصية بين الأستاذ والتلميذ شئ عظيم لا يدركه إلا من حظي بمثـل هـذا الاهتمـام الخاص من أساتذته.

ولعل خبراء التربية يدركون الفرق الكبير في المعاهد التي يكون فيها أعداد الطلبة كبيرة لدرجة لا يكاد الأستاذ يعرف أسماء تلاميذه ـ وبين تلك التي يعرف فيها الأساتذة جميع تلاميذهم.

كان للحسم والإقدام والإصرار وعدم التنازل في الطريقة التي أعادني بها الشيخ بابكر بدري إلى الأحفاد بالغ الأثر في نفسي وعلمتني ألا أتوانى عن تحقيق ما أصبو إليه وألا أتنازل بسهولة عن حق أرى انه من حقوقي. وقد يكون ذلك أحد الأسباب التي جعلتني أن اعلق في مكتبي في بدء حياتي العملية بيت الشعر المعروف لأبى القاسم الشابي والذي لا يزال في مكتبي إلى اليوم.

ومن يتهيب صعود الجبال   يعش ابد الدهر بين الحفر

طريقة الحفظ

لست ادري إن كان هناك من يستطيع أن يتذكر الوقت الذي استغرقه لتعلم الأبجدية الإنجليزية A B C وحفظها بالترتيب الذي يحفظها به اليوم والموجود في القواميس. أما أنا فاذكر ذلك جيدا ؛ فقد كان بداية العام الدراسي للسنة الأولى الوسطي بمدرسة الأحفاد. ففي أول أسبوع وبالتحديد في أول حصة للغة الإنجليزية دخل علينا الأستاذ إبراهيم إدريس وعرفنا بأنه سيدرسنا اللغة الإنجليزية. وقال انه سيبدأ بان نحفظ أغنية قصيرة باللغة الإنجليزية ؛ شرح لنا معانيها .

وكانت الأغنية تقول :ـ

COME LITTLE CHILDREN
LISTEN TO ME

I WILL TEACH YOU ...ABC

A B C D E F G

H I J K L M N O P

Q R S T U V

W X Y Z

وبدأنا نغني معه الأغنية غناءا جماعيا. ثم تغنيها مجموعات صغيرة واخيرا كأفراد.
وما أن انتهت الحصة الأولى لدرس اللغة الإنجليزية حتى كان جميع من في الفصل يحفظ تماما الأبجدية الإنجليزية وبترتيبها الموجود في المعاجم وظللت بعد ذلك وربما حتى الآن الجأ إلى تلك الأغنية كلما بحثت عن كلمة في القاموس الإنجليزي أو أي قائمة مصنفة أبجديا باللغة الإنجليزية. وللحقيقة فقد درج الشيخ بابكر بدري علي تحفيظ التلاميذ الكثير من قواعد اللغة العربية والنحو والإملاء والدين والجغرافيا عن طريق صوغها في أشعار أو رجز أو قطع منثورة فيها السجع وجميعها من تأليفه ؛ هذه الطريقة للحفظ مكنتنا ونحن أطفال صغار من أن نستوعب الكثير من قواعد الدروس المختلفة الشيء الذي لم نكن نجده عند غيرنا من الزملاء في المدارس الأخرى. وظلت تلك المحفوظات مرجعا لنا ـ وربما إلى اليوم في كثير من الأشياء.

" زحل " " اشترى " " مريخه " من " شمسنا "

" فتزاهرت " " لعطارد " " أقمار "

لا أدري أن كان ممكنا أن أتذكر حتى اليوم أسماء الكواكب السيارة أن لم اكن قد حفظت هذا البيت في مدرسة الأحفاد الأولية في النصف الأول من القرن العشرين.

ومن مقطوعات الإملاء المؤلفة والتي قصد بها التميز بين الألف اللينة والياء والهمزة؛ اذكر مقطوعة كانت تبدأ بالآتي :

يا أولي النهي أنتم الأولى سدتم الورى فطوبى لامرئ بكم اقتدى

كانت تلك المقطوعات تشمل معظم الكلمات المتداولة والمعروفة التي يجيء فيها

الحرف المقصود تعلمه . ولطالما استفدنا من تذكـــر هـذه المقطوعـات ونحـن نكتـب في سنوات حياتنا التي تلت .

حلقي يقلقل القاف قلقلة وحلق غيري يغير الغين تغييرا

هذا البيت الذي تعلمناه في المدرسة الأوليـة والـذي حـرص معلمونـا بالأحفـاد أن ننطقه نطقا صحيحا كان كفيلا بان يقينا عثرات نطق حرفي الغين والقاف والـتي كثـيرا ما تؤلمني وأنا اسمعها من بعض مذيعى الربط في الإذاعة والتلفزيـون وبعـض ضيـوف البرامج وحتى من بعض المسؤولين في الدولة عند استضافتهم في البرامج.

كان هذا النهج في الحفظ خير عون لي فيما استقبلت من حياتي الدراسية خصوصـا في الجامعة حيث بدأت أقبل علي الدروس بجدية ومسؤولية لم أعـهدها في نفسـي مـن قبل .

وفي كلية الصيدلة كانت الأسماء اللاتينية للنباتات والأدوية والأمراض تكاد تكون مستحيلة الحفظ لو لم الجأ لتلك الطريقة مع إضافة طريقــة أل ASSOCIATION والـتي تعلمتها من نظرية PAVLOF " الجرس والكلب والأكل " في درس علـم النفس الـذي تلقيته بالجامعة.

في مساء الخميس ٢ يوليو ١٩٩٨ كنت وبعــض الأصدقـاء راجعـين بعـد أن لبينـا دعوة كريمة من الأخ الأديب الكبـير الطيـب صـالح للعشـاء بمنزلـه بلنـدن. في سـيارة الأجرة كان يجلس بجواري الأســتاذ ربيـع حسـنين (المعلـم ومسـاعد الملحـق الثقـافي الأسبق بلندن وشقيق الفنان محمد حسنين) سأل ربيع سائق السـيارة عـن المسـافة إلى كوينزواى (QUEENS WAY) فأجـاب الرجـل "ABOUT TEN MILES" وبعـد قليـل سمعت الأستاذ ربيع يدندن :

WE ARE TEN MILES FROM HOME
WE ARE TEN MILES FROM HOME

WE RENT A WHILE
WE WALK A MILE
WE REST A WHILE
WE ARE NINE MILES FROM HOME

ودون أن اشعر وجدتني أتغنى معه بقية الأغنية :

WE ARE NINE MILES FROM HOME
WE ARE NINE MILES FROM HOME
WE WALK A MILE ... WE REST A WHILE
WE ARE EIGHT MILES FROM HOME

وهكذا إلى أن وصلنا إلى

WE ARE ONE MILE FROM HOME
WE ARE ONE MILE FROM HOME
WE WALK A MILE WE REST A WHILE
AT LAST WE ARE AT HOME

كانت تلك إحدى الأغنيات الإنجليزية التي تعلمناها في السنة الأولى الوسطى بالأحفاد. أستطيع أن اجزم بأنني لم اردد تلك الأغنية أو اسمع أحدا يرددها منذ ذلك الزمان (اكثر من نصف قرن) إلا أنني استحضرت كلماتها فور سماعي لها كأني قد حفظتها بالأمس فقط.

وهكذا ونحن نحفظ تلك الأغاني والأناشيد باللغة الإنجليزية وننطقها باللهجة الإنجليزية التي نسمعها من الأستاذ إبراهيم إدريس ونعرف معاني كلماتها كنا نخرج بحصيلة جيدة من اللغة ونحن في بداية تعلمنا لها . ألا رحم الله الأستاذ إبراهيم إدريس وكل من رحل من أساتذة الأحفاد العظام وأمد في عمر الباقين بالخير والعافية.

انتقالي لمدرسة حي العرب

في منتصف العام الدراسي للسنة الثانية الوسطي بالأحفاد والتي كان يدرسنا مادة اللغة الإنجليزية فيها الأستاذ هاشم محمد أبو القاسم (القاضي ونائب رئيس القضاء لاحقا) يبدو أنني أتيت بعمل يستحق العقاب ؛ وبدون أي مقدمات باغتني الأستاذ هاشم بضربة كف قوية علي صدغي "وقد كان كفه واريا" آلمتني اشد الألم وانبثق علي إثرها الدم من أحد أضراسي حتى بدت آثاره علي جلابيتي والتي حرصت علي إبقائها كما هي حتى رجعت بها إلى المنزل شاكيا لوالدي ما حدث.

وحقيقة كانت تلك المرة الأولى التي أتلقى فيها مثل هذا العقاب وبهذه القسوة منذ أن دخلت روضة الأحفاد. وقد كان أثرها النفسي علي سيئا للغاية.

وسألني الوالد عن السبب دون أن يظهر كعادته غضبه لما حدث. واصطحبني في

صباح اليوم التالي وذهب لمكتب " الناظر " يوسف بدري وروى له ما حدث. ولما كان يوسف بدري وقتها ما زال حديث الالتحاق بالأحفاد ويبدو انه كان مشغولا بأمر هام جدا ـ لم يعر أمري اهتماما يرضي الوالد. ولما طال بنا الجلوس خاطبه الوالد مرة أخرى " يا يوسف ما قلت لينا شئ في الحصل ده " فرد عليه الناظر من خلال انشغاله " أنت تفتكر يا شيخ دفع الله أنا ما عندي شغل غير علي ده ؟ "

كانت الروابط الأسرية وصلات الصداقة القوية تربط الوالد بالشيخ بابكر بدري كما كان الوالد عضوا بمجلس أمناء الأحفاد وعليه لم يكن ذلك الرد مرضيا له فقام واخذ بيدي وخرجنا من المدرسة.

بعد يومين وجدت نفسي في مدرسة حي العرب الوسطي. لست ادري كيف تم ذلك ولكن الذي اعلمه أن السيد محمد صالح الشنقيطي رئيس مجلس مدرسة حي العرب كان صديقا للوالد ولطالما رايته من قبل في زياراته لنا بالمنزل وأيضا كان الوالد قد اصطحبني معه عدة مرات قبل ذلك الحادث لزيارته في منزله الكائن في شارع الشنقيطي حاليا. و كان الأستاذ عثمان احمد عمر " عفان " ناظر المدرسة وكان زوجا لصفية بنت عمي محمد شبيكة.

وهكذا انتقلت للمرة الأولى خارج محيط الأحفاد التي كانت المهد الذي وعيت فيه أول الأمر وتعلمت فيه حروف الهجاء ومبادئ المعرفة حتى مبادئ اللغة الإنجليزية. وحفظت فيه اكثر من ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم. وقد علمني هذا الانتقال أشياء كثيرة في الحياة وأشياء اكثر عن الأحفاد لم اكن استوعبها من قبل حتى بدأت اجري مقارنة بما كان عليه الحال في المدارس الأخرى. أرجو أن أتطرق لبعض هذه الأمور لاحقا. أما الدرس الأكبر من تلك الحادثة فهو ألا اذهب شاكيا معلما أبدا أساء معاملة أو شدد العقاب لأحد أبنائي مهما كان الأمر. وقد التزمت بهذا النهج حتى تخرج جميعهم من الجامعات.

وكان هذا أيضا أمر التزمته شخصيا فلم اشتك بعد ذلك للوالد أو غيره من معلم بل تعلمت أن أعالج كل الأمور بنفسي دون أن ينقص ذلك من احترامي لأساتذتي وحبي لهم. ولعله من المناسب أن اذكر في هذا المجال أن ابنتي ردينه كان قد بدأ ينتابها صداع شديد في فترات متقاربة وهي في السنة الخامسة الابتدائية في مدرسة الراهبات للبنات بالخرطوم. فأجريت لها الفحوصات اللازمة من تحاليل وصور أشعة وتولي ذلك الأخ الدكتور حسين سليمان أبو صالح كبير أخصائي أمراض المخ والأعصاب آنذاك. وذكر لي انه لا يوجد مرض عضوي يمكن أن يكون سببا لهذا الصداع .وزيادة في التأكد ربما يكون مناسبا أن تعمل لها صور أشعة مقطعية SCAN وهي غير موجودة في السودان في ذلك الوقت وحسب علمه فقد كانت في دولة الكويت وإنجلترا. وكان أن سافرت ومعي ردينه إلى لندن ورأيت أن استشير دكتور هواراد بيدرمان بمستشفي University College Hospital وكان هو الذي يجري لي الفحوصات السنوية - CHECK UP ورأيت أن أستشيره فيمن تذهب إليه. وبعد الاطلاع علي الصور والتقارير من السودان ذكر لي انه عمل مستشارا طبيا في إحدى المناطق التعليمية وانه ربما كان أجدى أن يجري معها مقابلة أو مقابلات أولا ثم يوصي بعد ذلك بما يراه.

في النهاية توصل إلى انه لا يوجد مرض عضوي وانه قد مرت عليه بعض الحالات المماثلة وكانت جميعها ترجع أما لتغير المدرسة أو تغير معلم. ربما كان هناك تحامل منه عليها أو لم يتم التجاوب المطلوب بينهما .وقد كانت هذه الأخيرة هي السبب.

فقد اتضح انه مع تغيير الفصل كان هناك مدرس جديد للغة العربية اشتكت هي انه كان يتحامل عليها لسبب لا تعلمه .وهكذا وجدت الكرة في ملعبي بالسودان كما يقولون.

ذهبت في اليوم التالي لوصولنا الخرطوم وقابلت مديرة المدرسة وطلبت منها أن التقي بالأستاذ محمد مدرس اللغة العربية. ذكرت للأستاذ أنني لمست بعض الضعف

لدي ردينه في اللغة العربية وأنني لجأت إليه لنتعاون سويا في تحسين مستواها وتحبيبها فيها مبديا تقديري لعلمه وكفاءته اللتين لا اشك انهما كفيلتان بمعالجة هذا الأمر وقلت له إنني أرجو أن أتلقى منه أي توجيهات يراها فيما يمكن أن أقوم به من جانبي في المنزل لتحقيق ذلك. وإنني على استعداد لمتابعة هذا الأمر معه حتى نصل إلى ما نرجوه من تحسن. بالإضافة إلى أنني علي استعداد للحضور للقائه متي ما طلب ذلك للمتابعة.

تم كل ذلك دون أن تكون ردينه في الصورة. وكانت النتيجة مدهشة. فما لبث الصداع أن اختفي ـ وبدأت تحكي عن التغير الإيجابي في معاملة المعلم لها. بالطبع لم انس أن اذهب لمقابلته مرة أخرى وان اشكره علي ما لمست من تحسين في مستواها بفضل اهتمامه ورعايته.

ربما كانت تلك الحادثة الوحيدة التي تدخلت فيها لمعالجة أمر بين أحد أبنائي ومدرسيهم. فيما عدا ذلك فلم يتقدم أي منهم للشكوى من معلم ـ وربما لعلمهم مسبقا أنني لن أتدخل.

وهكذا بعد الروضة وخمسة أعوام بالمدرسة الأولية " أما لماذا خمسة وقد كانت المدارس الأولية ٤ سنوات فسأبين تفصيل ذلك لاحقا " ـ وبالإضافة لعام ونصف بالمدرسة الوسطي ـ بعد كل ذلك كتب علي أن انتقل إلى مدرسة حي العرب الوسطي دون رغبة مني أو تخطيط مسبق من أحد.

حي العرب الوسطي

في مدرسة حي العـرب الوسـطي لفـت نظـري للوهلـة الأولى التفـاوت الكبـير في الأعمار ـ وبالتالي في أطوال وأحجام التلاميذ في الفصل الواحد. ففي الوقت الذي كان فيه جميع التلاميذ في مدرسة الأحفـاد الوسـطى ـ خصوصـا المنتقلـين مـن الروضـة إلى الأولية إلى الوسطي ـ في سن واحدة تقريبا يصعب أن تفرق بينهم ؛ كان الفارق كبـيرا في مدرسة حي العرب.

ولحسن الحظ وضعت في الصف الأول يشاركني في الدرج فاروق صديـق الشـيخ ـ الطبيب ومدير بنك الدم بمستشفي الخرطوم التعليمي لاحقا. وكان فاروق في مثل سني تقريبا ونكاد نكون متماثلين في الطول. وسرعان ما نمـت بيننـا صداقـة ومحبـة امتـدت طوال المدة التي قضيتها في مدرسة حي العرب وعـبر الدراسـة الجامعيـة حيـث كنـت

التقي به مع بعض الأصدقاء الذين كانوا يدرسون الجامعـة في مصـر ـ وكنـت احضـر إليهم في ذهابي وإيابي أبان العطلات الجامعية من بيروت حيث كنت ادرس في الجامعة الأمريكية. وتواصلت الصداقة عقب التخرج من خلال الممارسة في الحياة العملية.

لا أزال اذكر ذلك اليوم من عام ١٩٦٤ الذي استلمت فيه خطابا وأنـا في الخرطـوم وكان من الدكتور فاروق صديق قال فيه انـه يكتـب هـذا الخطـاب مـن مدينـة بـانتيو بجنوب السودان. كانت تلك هي المرة الأولى التي اسمع فيها هذا الاسـم وذكـر لي انـه انتدب ليمضي هناك ما كان يسمي وقتها بالخدمة في مناطق الشدة. وشـرح لي صعوبـة العمل هناك خاصة في موسـم الأمطـار الغزيـرة حيـث يصعـب عليـهم الوصـول إلى المرضى أو إيصالهم إلى المستشفى.

كان ذلك في أوائل عام ١٩٦٤. ومرت السنوات ولم اسمع باسم بانتيو إلا في أوائل الثمانينات عندمـا جـاءت شـركة شـيفرون الأمريكيـة لاكتشـاف حقـول البـترول في السودان. ومنذ ذلك الحين بدا اسم بانتيو يتردد كثيرا في أجهزة الأعـلام باعتبـار أنــها من أهم مناطق حقول البترول بالسودان .من يدري ما قد تجيء به الأيام فلربمـا ولـدت في القريب العاجل دالاس أخـرى في جنـوب السـودان غـير تلـك المدينـة الشـهيرة في تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية تختلف فيـها الأحـوال والظـروف المعيشـية عـن تلك التي وصفها لي صديقي دكتور فاروق عام ١٩٦٤. والذي ما زلـت اذكـره كلمـا قرأت أو سمعت اسم بانتيو يتردد. ولكن لو استمر الاقتتـال في جنـوب السـودان قـد تتحول مدينة بـانتيو إلى خرائـب وأدغـال تجعـل أبناءهـا يذكـرون أيـام عـام ١٩٦٤ ويتحسرون علي الخير والأمان النسبي الذي كانوا يعيشون فيه في تلك الفـترة. وهكـذا مضت الأيام وتفرقت الدروب بنا ولكن القلوب لا تزال تنبض بتلك المشاعر الجميلة.

الشـيء الثاني الذي لفت نظري هو وجـود قلـة مـن التلاميـذ ممـن هـم اكـبر سـنا

وحجما من الآخرين يمارسون التحرش و " الفتونة " والابتزاز مع بقية التلاميذ. وعرفت أيضا للمرة الأولى أن بعضهم كان يحضر خيزرانة أو عصا يقوم بدفنها خارج المدرسة ليستعملها في المشاجرات عقب انتهاء الدراسة.

في ذات مرة قال لي أحد هؤلاء أن فريد احمد متولي العتباني ـ وكان زميلا لنا بالفصل ـ " ولد مدلع " ولما سألته عن السبب الذي جعله يعتقد ذلك قال انه يحضر معه للفطور (سندوتش بيض مسلوق من المنزل) !! . . ويبدو انه كان يود أن يقاسمه فريد ذلك الإفطار اللذيذ بالمقارنة مع الفول والطعمية التي كانت الإفطار المعروف لغالبية التلاميذ ولكنه لم يوفق لذلك.

في مدرسة حي العرب الوسطي تعرفت علي عدد كبير من الزملاء ـ صاروا أصدقاء فيما بعد ـ وتوطدت صلاتي بمن كنت اعرف من قبل مثل الطاهر دياب الذي تربطني به صلة القربى وعز الدين عبد القادر عمر الصادق والذي كان رفيق النشأة في حي الهاشماب وهو أيضا مثلى من أبناء الرباطاب أصلا الذين ولدوا ونشأوا في حي الهاشماب ـ وقد توطدت علاقتي به في مدرسة حي العرب وكنا نذهب ونرجع إلي المدرسة سويا طوال المدة التي أمضيتها في المدرسة.

رحمه الله رحمة واسعة فقد استشهد في حادث تصادم طائرتين أثناء قيامهما باستعراض فوق سماء توريت في جنوب السودان عام ١٩٥٧ مع ثلاثة آخرين من زملائه الطيارين من القوات المسلحة. هم عز الدين والجميل و إسماعيل وملازم أول زلفو. واحترقت الطائرتان واستشهد أربعتهم.رحمهم الله جميعا.

لا يفوتني أن أذكر أن مدرسة حي العرب الوسطى كانت تضم إلى جانب الناظر عفان نخبة من خيرة الأساتذة من أبناء السودان ممن كان لهم الأثر في مسيرة البلاد نحو الاستقلال وعرفوا بالوطنية الصادقة وكانوا قدوة لتلاميذهم في شتي المجالات. منهم محمد إبراهيم خليل المحامى وبابكر احمد موسى.

ونظرا لما غرسته الأحفاد في نفوسنا من حب واحترام للمدرسين ؛ فلم البث طويلا حتى وجدت نفسي منسجما في جو المدرسة محبا للأساتذة ومتطلعا للاستزادة من علمهم الغزير خاصة الأستاذ بابكر احمد موسى وقد كان يدرسنا اللغة العربية والأستاذ عبد الحليم ماميش وكان مدرس اللغة الإنجليزية.

دفعني هذا الحب والتعلق بالأساتذة وحوالي عشرة آخرين إلى مغادرة المدرسة في أثناء العطلة الصيفية وأنا بالسنة الثالثة الوسطي وعدم الرجوع إليها. ذلك حينما علمنا أن اختلافا بين ناظر المدرسة الأستاذ عثمان احمد عمر " عفان " وبين شيخ سليمان سكرتير المدرسة أدى إلى أن يترك عفان المدرسة ويلتحق بالمدرسة الأهلية الوسطى بأمدرمان ـ وبعدها ذهب ناظرا لمدرسة الخرطوم الأهلية الوسطى . وهكذا انتقلت إلى المدرسة الأهلية الوسطي في منتصف الفصل الدراسي للسنة الثالثة .

في المدرسة الأهلية الوسطى تعرفت بعدد كبير من التلاميذ وربطتني بهم صداقات حميمة امتد بعضها حتى اليوم والي آخر العمر إن شاء الله. كان هناك من أبناء الحي احمد السيد الفكي وعثمان يوسف هاشم وعثمان مختار أبو قصيصة (والذي كان يقيم في منزل العم محمد شبيكة) ومن أبناء الموردة كان هناك التجاني فضل الله ومبارك حسن الخليفة وخلف الله محمد فضل الله (تزاملت معهم أيضا بالأحفاد الثانوية) وعبد المجيد الصاوي و . و غيرهم كثيرون ممن يضيق المجال عن حصرهم.

في المدرسة الأهلية الوسطي عرفت لاول مرة ممارسة الهروب من المدرسة عقب الحصة الخامسة يوم الخميس. ولست ادري من أغراني بتلك التجربة وأي معني كان لها. ولكن الذي أدريه جيدا ـ وكنا خارجين من خلال السياج الحديدي للسور لمحنا الناظر عبد القادر شريف وهو ممتط صهوة حماره الشهير خارجا من المدرسة. وكان المأمول حسب العادة أن ينسي الناظر ذلك خلال العطلة الأسبوعية. ولكن ما أن جاء

يوم السبت حتى استدعينا لمكتب الضابط الأستاذ محمد حمـزة والـذي بـادرني بصفعـة علي الوجه كان كفه شهيرا بـها. بعدها جاء تاج الدين الفراش ونلنا نصيبنا من الجلـد بالسوط. وكانت المرة الأولى والأخيرة والتي لا ادري إلى ألان ما الذي دعاني إليها ومـا الذي استفدته من تلك (الشردة) إلى يومنا هذا. تلك الممارسـات لم نكـن نعرفـها في الأحفاد ـ فقد كان ارتباطنا بالمدرسة وحبنا لمن فيها شيئا آخر مختلفا جدا عن ذلك.

العودة للأحفاد

أتممت دراسة المرحلة الوسطى متنقلا بين ثلاث مدارس ـ الأحفاد وحي العرب ثم الأهلية بامدرمان ؛ لم أتمكن عند الجلوس لامتحان " الشهادة الابتدائية " من الحصول علي مجموع يؤهلني لدخول مدرسة وادي سيدنا الثانوية الحكومية. وهكذا عدت إلى الالتحاق بالأحفاد الثانوية " بالمصاريف الإضافية " بالرغم من أن والدي كان عضوا بمجلس أمناء الأحفاد.

عند بداية العام الدراسي ـ وفي الحصة الأولى علي وجه التحديد ـ دخل علينا العميد يوسف بدري في الفصل وهو يحمل قائمة بها أسماء . كان عدد الطلبة في الفصل ستة وثلاثين.

أرجو ملاحظة استعمالي هنا لكلمة الطلبة بدلا من التلاميذ إذ أن المرحلة الثانوية

تكون سنوات المراهقة وهى بداية لمرحلة من النضج تتسم بشيء مـن الجـرأة والتـهور. كما وأنها بداية مرحلة النضال السياسي - " وعاش كفاح الطلبة - الخ "

دخل العميد وبدا يقرا الأسماء ـ وكل من يسمع اسمه يرفع يده. قرأ ثلاثين اسمـا. ثـم قـال أن الذيـن قـرأت أسمـاءهم هـم المؤهلـون لدخـول الثـانوي والبقيـة قبلـوا بالمصاريف الإضافية. وكنت ضمن الستة الذين لم تقرا أسماؤهم . وكنت فعـلا قـد قبلت بالمصاريف الإضافية " ثلاثين جنيها في العام " لست ادري حتـى الآن الشـيء الذي كان يرمي إليه العميد من ذلك. ولكن الذي أحسسته أن العميد قد القـي أمـامي قفاز تحد التقطه وأنا اشعر بمرارة في ذلك الوقت. غير أن تلك المرارة لـم تـدم طويـلا إذ ما لبثت أن انخرطت في تلـك المرحلـة الجديـدة مـن حيـاتي الدراسـية وانـهمكت في الاحتفاء والتعرف بالزملاء الجدد خصوصا القادمين منـهم مـن الأقـاليم. وبالجـهات التي قدموا منها وأيضا تعرفـا أو اسـتظرافا للكنـة بعضـهم في الحديـث بالعاميـة الـتي تختلف أحيانا عن الطريقة التي كنا نتحدث بـها نحن أبناء العاصمة.

من ضمن هؤلاء كان الطالب حسين محمد سعيد بازرعة والـذي كـان يجـاورني في الفصل. وكنا لا نمل أن نحاكي نطقـه هـو والزميـل عبـد الله اوهـاج لبعـض الكلمـات والحروف مداعبين ومتفكهين في ود ومشاعر محبة صادقة.

انقضي نصف العام الدراسي للسنة الأولى بالثانوي وظهرت نتيجة الامتحان وجـاء ترتيبي السادس من الستة والثلاثين طالبا. وحملت النتيجة وذهبت إلى العميـد يوسـف بدري وكان مكتبه لا يزال في الأحفاد القديمة المواجهة لشارع الموردة ولـم ينتقل بعد إلى مباني المدرسة الثانوية المواجهة لمركـز امدرمـان " الظبطيـة " مـن الناحيـة الجنوبيـة. دخلت ومددت يدي بالشهادة ولما سألني قلت له انظر فأنا ترتيبي السادس وهو افضل من ثلاثين آخرين في الفصل وانك في بدء العام الدراسي لم تذكر اسمي ضمن الطلبـة

المؤهلين للقبول بالثانوي وأنني قبلت بالمصاريف. الإضافيه قهقه العميد ضاحكا بطريقته المعروفة لدينا وربت علي خدي وكتفي قائلا " . . ايوه كويس . . كويس يا علوب" هذا التقدم في الترتيب والذي ظل يتحسن طوال سنين الدراسة الثانوية لم يعفني من دفع المصاريف الإضافية ؛ فقد كان المبدأ ولا يزال في الأحفاد أن القادر يجب أن يدفع حتى يسهل علي الإدارة إعفاء غير القادرين. لم اعرف أبدا هذا النهج التكافلي في التعليم في أي من المدارس الأخرى في تلك الأيام ولا ادري أن كان موجودا بالسودان اليوم.

حتى في الدراسة الجامعية وفي الجامعة الأمريكية ببيروت كان المتفوقون يحصلون على المنح الدراسية المجانية بغض النظر عن مقدرتهم المالية في الوقت الذي لا تقدم فيه هذه المنح لكثير من المحتاجين. لعله من المناسب أن اذكر الحادثة الطريفة التالية :

قبل ثلاثة أو أربعة اشهر (حوالي أبريل ١٩٩٨) ذكر لي ابني ملاذ أنه ذاهب لدفع مصاريف المدرسة لعبد الرحمن ابن أخيه وائل نسبة لسفر والده وبالسؤال علمت أن تلك المصاريف رسوم العام الدراسي للالتحاق بالسنة الثانية الابتدائية بمدرسة المجلس الأفريقي. من باب العلم بالشيء سألته عن مقدار تلك المصاريف فقال أنها سبعمائة وخمسون ألف جنيه للعام أي أنها مليون إلا ربع .

ما زلت اذكر رقم المبلغ المكتوب بالشيك الذي سلمني له الوالد رحمه الله في أغسطس عام ١٩٥٧ ليغطي مصاريف السنة الأخيرة لي في كلية الصيدلة بالجامعة الأمريكية في بيروت. كان المبلغ ٤٢٠ (أربعمائة وعشرون جنيها) وهو يشمل الرسوم الدراسية وقيمة الكتب والسكن والأكل بالإضافة للنثريات (مصاريف الجيب) لابد لي أن اذكر انه الآن تقبل بعض الطالبات في جامعة الأحفاد بالمجان وأخريات كثر يقبلن بمبلغ يقل كثيرا عن المبلغ المطلوب من حفيدي عبد الرحمن بن وائل كمصاريف للعام الدراسي.

ما بين عام ١٩٥٧ وعام ١٩٩٨- ترى هل ازدادت أعداد المدارس والمستشفيات بنفس نسبة زيادة المصاريف المدرسية أم أن الزيادات انحصرت في زيادة أعداد الوزراء والوزراء الإقليميين علي توالي الحكومات التي تولت الحكم في السودان منذ الاستقلال عام ١٩٥٦ ؟؟ وإذا كان البعض يعزي هذه الزيادات إلى تدهور سعر الجنيه السوداني - فكم يا تري نسبة التدهور في مستوي الأداء في المعاهد العليا والمستشفيات؟؟ هل من خبير يفتينا في هذا ؟؟.

كان الجو الديمقراطي الذي يشع في الأحفاد الثانوية قد شجعني أن احمل شهادتي متحديا واذهب إلى العميد في مكتبه لاقول له إن تقديره الأول كان غير صحيح. وكان استقبال العميد لهذا التحدي بالبشاشة والسرور بل بالروح الأبوية الحانية ومخاطبتي ب " علوب " وهو ما ظل يناديني به منذ المدرسة الأولية وطوال حياتي الدراسية كان استقباله لي بتلك الروح هو قمة الديمقراطية الشيء الذي لم يكن معروفا عند نظار المدارس الثانوية في ذلك الزمان وخاصة في ثانويات الحكومة والتي كان يديرها إنجليز عرف بعضهم بالفظاظة في معاملة الطلبة. تكرر حدوث ذلك التحدي بالنسبة لي في السنة الأولى بالجامعة الأمريكية ببيروت ولكن بطريقة مختلفة جدا جعلت ذلك التحدي يظل قائما بيني وبين الأستاذ حتى تخرجي من كلية الصيدلة وان انحسرت عنه الحدة في السنوات الأخيرة.

في السنة الأولى كان بروفيسور (.) يدرسنا مادة تسمى Theory of Solutions وفي أول حصة معملية اكتشفت أنني اجهل كيفية استعمال الميزان الكيميائي Chemical Balance وكانت معقدة بعض الشيء بينما اكثر زملائي كانوا ملمين بطريقة الاستعمال. وظننت انهم تعلموا ذلك في المدارس التي كانوا بها قبل الالتحاق بالجامعة. وفي أثناء مروره وقف البر وفسر بجانبي مبتسما ثم اكتشف أنني لا اعرف كيف استعمل ذلك الميزان فبدا يسألني في سخرية عما افعل وكانت الكلمات تنطوي

علي قدر كبير من الاستهزاء حتى شعر بذلك الزملاء الذين كـانوا بـالقرب مـني. وفي النهاية ذهب دون أن يكلـف نفسـه عنـاء شـرح طريقـة اسـتعمال الميزان الكيميـائي. أمضيت بقية الوقت في مرارة شعر بها زميل كان بالقرب منى اسمه آدم جراح ـ تحـول لكلية الطب لاحقا ـ وتكفل بان يشرح لي طريقة الاستعمال عقب الحصـة. وقـد كـان. وعندها علمت منهم انـــهم قد حضروا محاضرة لم أعلـم بـــها وربمـا كـانت خـارج الجدول المقرر وفيها تعلموا طريقة استعمال الميزان الكيمائي. بذلك التصرف الذي لا زلت اجهل دوافعه والذي كان ابعد ما يكون عما عرفته بالسابق من بث روح التحدي بطريقة تربوية كتلك التي كنت أجدها من العميد يوسف بدرى ـ بذلك التصرف بـذر البروفسر بذور تحد بيني وبينه دامت حتى انتهاء الدراسة بكلية الصيدلة.

في الجامعة الأمريكية كانت تجرى لنـا اختبـارات عديـدة في أثنـاء الفـترة الدراسـية وتكون درجات تلك الاختبارات ثلثي النتيجة النهائية بينما الامتحان النهائي له ثلـث درجات المادة فقط. وقـبل دخـولي الامتحـان النـهائي لمـادة ال the Theory Solutions حرصت أن التقى بالبروفسير (. .) وان أقول له انه لا حاجة لي بدخـولي الامتحـان النهائي لأنني ناجح من دونه وان درجاتي النهائية ٦٦ ٪ من حصيلة الامتحان في أثنـاء السنة الدراسية.

لم يسره ذلك ـ كما سر العميد يوسف بدرى من قبـل في السـنة الأولى في الأحفـاد الثانوية ـ وسررت أنا جدا أن البروفسير لم يسر.

والتقـــيت بـه مــرة أخــرى فـــي الســـــــنة الثالثـــة مدرســـا لمادة ال Pharmaceutical Chemistry وقد استمر التحدي غـير المعلــن بيننـا وقــد وفقـــني الله مـرة أخرى أن أكون في المستوى الذي أردت.

في السنة الأولى والثانية بالأحفاد الثانوية ـ كان الأستاذ احمد عبد الله المغربي يدرسـنا

اللغة العربية وكان قبل ذلـك يعمـل بمـدارس الحكومـة إلا انـه فصـل بسـبب نشـاطه السياسي واتـهامه بأنه من جماعة أنصار السلام. وهى تـهمة تطـابق الشـيوعية والـتي كانت الحكومة الإنجليزية قد أعلنت الحرب ضدها في جميـع مسـتعمراتها بعـد الحـرب العالمية الثانية. ولم يكن مسموحا بقيام حزب شيوعي إلا في بريطانيا فقط. . . !!

من الطرائف الـتي حدثـت في ذلـك الوقـت ـ إن الأسـتاذ المغربـي في خـلال حملـة التشريد التي كانت سلطات البوليس تتعقبه بها ـ اضطر إلى الاشـتغال سـائقا لسـيارة أجرة وهو الجامعي والأستاذ المرموق. وعلم البوليس بذلك وذهب أحدهـم إلى مـالك العربة واخبره بان هذا شخص خطر ومطارد وعليه القيام بفصله.

واحتار صاحب العربة كيف يفعل ذلك وهو لم يلمس من الأستاذ المغربي إلا كـل خير. فذهب مبكرا في صبيحة اليوم التالي إلى موقف التاكسي في المحطـة الوسـطى بـأم درمان وظل يرقبه من بعيد وهو ينظف السيارة وعندما فتح غطاء المحرك هجـم عليـه قائلا : "أنا مش قلت ليك لو العربية خسرت ما تدخل يدك فيـها وتحـاول إصلاحـها وان تدع ذلك للميكانيكي ؟؟ أنت مرفود " .وحاول الأستاذ المغربي أن يشرح له بـان العربة ليـس بها عطـل وانه فتـح غطاء المكـنة ليتأكـد من مستوي المـاء في اللديـتر " Radiator " ولكن ذلك لم يشفع له وأصر صاحب العربة علـي فصلـه خوفـا مـن ألا تواتيه فرصة أخرى لذلك فيقع تحت طائلة رجال البوليس وغضبهم عليه.

بالرغم من كل ذلك تقوم الأحفاد بتعيين الأسـتاذ احمـد المغربـي مدرسـا بالمدرسـة الثانوية رادة له اعتباره وغير عابئة بغضب السلطات ـ ذلك انه كـان والحـق يقـال مـن خيرة الأساتذة الأكفاء في تدريس اللغتين العربية والإنجليزية واذكـر انـه كـان يـدرس اللغة العربية لكثير من الإنجليز المنتدبين للعمل في السودان سواء كان ذلـك في السـلك الإداري أو غيره وهو ألان عضو مجمع اللغـة العربيـة في السـودان. ولم يكـن الأسـتاذ

المغربي الوحيد الذي تعينه الأحفاد بل كان هناك غيره ممن تعرضوا لتهم مماثلة أو عرفوا بميول يسارية مثل الأستاذ حسين وني " المحامي " متعهما الله بالصحة وأفاد السودان من عطائهما في شتى المجالات.

السؤال المطروح هو :

ما الذي يجعل الأحفاد تقدم علي هذا بالرغم من المصاعب التي كانت تعانيها وحاجتها إلى العون الحكومي رغما عن اختلاف الرأي بين القائمين علي أمرها وأهل الاتجاهات اليسارية.. !؟

يحصل هذا ونحن في تلك السن المبكرة مدركون لما يدور حولنا ـ نتأمل ونتشرب تلك الممارسات الحضارية الراقية والتي لا تسمح لاختلاف الرأي أن يفسد الود أو يكون له يد في أي قرارات مصيرية تتعلق بالإنسان. هذا الشيء العظيم.. تعلمته من الأحفاد.

لا يفوتني هنا أن اذكر أن الأحفاد بدأت تستقبل في أعوام ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ أفواجا من الطلبة المفصولين من مدارس حنتوب وخور طقت الثانويتين ـ فصل بعضهم بسبب التوجهات السياسية " الشيوعية " ـ والبعض الآخر بسبب المشاركة في الشغب والإضرابات التي اجتاحت تلك المدارس لشتى الأسباب.

وظل الكثيرون يتساءلون عما يدعو الأحفاد لاستيعاب هؤلاء وعدم المبالاة من احتمال تسرب عدوى الإضرابات إليها.

أما نحن الطلبة فيشهد التاريخ أننا قد وجدنا فيهم أصدقاء وزملاء خيرين قل أن يجود الزمان بأمثال الكثيرين منهم. وقد أمضينا أياما هانئة وطدت أواصر الصداقة بيننا والتي استمرت طوال حياتنا في شتي الميادين وما زالت تطل صادقة وحميمة متي ما جمعتنا ظروف الحياة.

كان معنا في الفصل يوسف محمد بشارة وحسن عبيد الشايقي وبخيت عبد الرحمن

وعبد الرحيم البخيت " ود البخيت " وعبد الوهاب سليمان وعبد الباسط بحيري ممن فصلوا من حنتوب أو " مرافيد " حنتوب كما كنا نسميهم ويسمون أنفسهم آنذاك.

وفي الفصول التي كانت بعدنا كان هناك دفع الله الحاج يوسف واحمد حسب الرسول الكوقلي وعبد الله هداية الله وصلاح احمد إبراهيم والرشيد أبو بكر وتوفيق التجاني أبو قرون وفيصل محمد عبد الرحمن ومحمد العوض مصطفي " ود العوض " وغيرهم آخرون ممن تقلدوا مناصب عليا وكانت لهم أدوار مرموقة في الحياة العامة في السودان وخارج السودان.

لست ادري أي مصير كان ينتظر هؤلاء أو بعضهم أن لم تفتح لهم الأحفاد أبوابها. اقل ما أتصور أن يفقدوا بضع سنين من مستقبل حياتهم المدرسية. ومرة أخرى تتضح مبادئ الأحفاد وفلسفتها التي تضع مستقبل أبناء السودان في المكانة الأولى قبل أي قهر سياسي وتراعي ألا تتحكم في ذلك المستقبل إجراءات إدارية متعسفة تضيع من جرائها سنوات من العطاء المنتظر لبناء الوطن.

كان لممارسة الأستاذ احمد عبد الله المغربي العمل كسائق تاكسي بالرغم من مؤهلاته العلمية الرفيعة أثر كبير في رؤيتي المستقبلية للعمل والتي جعلتني لا استنكف من القيام بأي عمل طالما كان شريفا.

في كافيتريا الجامعة الأمريكية في بيروت شهدت لاول مرة زملاء الدراسة يعملون كعمال في الكافتيريا ـ يجمعون الصحون ويقومون بنظافة الموائد وبعد وقت قصير يكونون بجانبنا في مدرجات المحاضرات دون أن يكون في ذلك أي حرج. اذكر أن الأخ سليمان بدري (ابن الأحفاد) كان قد عمل أيضا في أحد المطاعم القريبة من الجامعة لوقت ما دون أن يجد في ذلك حرجا.

في ذلك الوقت في مدارس وادي سيدنا وحنتوب وخور طقت وفي جامعة الخرطوم

كانت موائد الطلاب تذخر بكل ما لـذ وطـاب وتقـدم للطلبـة بالمجـان ويقـوم علـي خدمتهم جيش من السفرجية والخـدم ومـع ذلـك يقومـون بإضرابـات عـن الدراسـة محتجين على رداءة أصناف الطعام. اذكر أيضا أن زملاءنا من خريجي جامعة الخرطـوم من كليات الآداب كانوا بعد التخرج يرتادون المقاهي متعطلين ورافضين العمـل في أي مرفق إلي أن تحـين لحظـة اختيـارهم إمـا لـوزارة التجـارة أو الماليـة . أمـا دون ذلـك فالحلواني والمحطة الوسطى أولى بعلمهم ومؤهلاتهم.

المدرسة حياة كاملة

لم تكن الحياة المدرسية في الأحفاد محصورة في الفصل والدراسة والامتحانات كما هو الحال في المدارس الأخرى. وقد أتاح لي تنقلي بين المدارس في أثناء المرحلة الوسطى (ثلاث مدارس) فرصة إدراك ان الحياة المدرسية في الأحفاد كانت تختلف عن مثيلاتها في المدارس الأخرى.

في غير الأحفاد كان الأمر يكاد يقتصر على الحضور في السابعة والنصف صباحا فالطابور ودخول الفصل والدرس والخروج في الفسحة وفى النهاية العودة إلى المنزل دون أن يكون هناك إدراك لما يجرى في المدرسة من أحداث أو التفاعل معها.

على سبيل المثال عندما ترك الأستاذ عثمان احمد عمر (عفان) ناظر حي العرب الوسطى ـ المدرسة غاضبا ـ فقد بدا رد الفعل لدى الأغلبية العظمى من التلاميذ عاديا

جدا ـ هذا إذا كان هناك رد فعل يذكر. وعليه فقد كان العدد الذي ترك المدرسة احتجاجا على مغادرة عفان لها ـ كان العدد ضئيلا لم يشكل أي نوع من الضغوط على مجلس المدرسة لمحاولة استرضاء الناظر عفان وإرجاعه للمدرسة ـ ولما كان لعفان وهو أستاذ مرموق وناظر فذ من مكانة كبيرة يعرفها الجميع في مجال التعليم آنذاك فقد بدا رد الفعل بين الطلاب مستغربا جدا وأظن أن الكثيرين منهم لم يكونوا ليعرفوا أو يدركوا معنى وجود ناظر كعفان على راس المدرسة ـ وان الأمر لديهم كان مقتصرا على الفصل والدرس والامتحان كما ذكرت.

في الأحفاد كانت المدرسة بالنسبة لنا حياة كاملة ـ يعرف بعضنا البعض ونعرف بيوت بعضنا ونعرف المدرسين ونلم بكل ما يجرى في المدرسة من أحداث حتى المسائل الإدارية وعلاقة المدرسين بالإدارة وبعضهم بالبعض. الآخر لذلك كنا جزءا لا يتجزأ من المدرسة وعشنا وعاشت المدرسة فينا بكل أهدافها ومراميها التربوية. يشمل ذلك دراسة العلوم والآداب والتربية الوطنية.

في المدرسة الأولية في الأحفاد نمي إلى علمنا أن خلافا نشب بين شيخ ميرغني السنجك والعم عبد الكريم بدري ؛ ولعل تغيب شيخ ميرغني عن المدرسة كان أول شئ لفت نظرنا إلى ما حدث. وعندما ما تساءلنا عن سبب الغياب قيل أن شيخ ميرغني مريض. ثم علمنا أن العم عبد الكريم بدري سافر إلى بورتسودان. كل ذلك والإدارة حريصة علي أن تتمكن من حسم ذلك الخلاف دون أن تظهر آثاره علينا نظرا لما تعرف من حب نكنه لهما وان تغيبهما عن المدرسة يعني الكثير بالنسبة لنا وربما تكون له آثار نفسية ضارة.

في تلك الأيام كان نشيد " هيا إلى البستان " من ضمن الأناشيد المدرسية التي نتغني بها وفجأة ظهر تحوير في كلمات النشيد لست ادري إلى ألان من هو أو من هم التلاميذ الذين قاموا بذلك التحوير ولكن الذي اعرفه جيدا أن أصواتنا كانت تعلو

مرددة ذلك النشيد في أثناء الفسحة وكانت الكلمات تقول :

هيـــــــا إلى البســـــــتان	هيـــــــا إلى البســـــــتان
طعميـــــة عـــــم عثمــــاني	رغيـــف كوســـــتي كريــــاني
شـــيخ مـــيرغني قـــال عيـــاني	وعبـــد الكريـــم زعلانـــــي
وماشـــــــي بور تســـوداني	هـــــيا إلـــــى البســـتان

انزعجت الإدارة لهذا التحوير في النشيد ولم تتمكن من معرفة الذين قاموا به رغم الجهود المبذولة في ذلك. ولكن يبدو إن الجهد تضاعف في السرعة لـرأب الصدع وما هي إلا أيام قليلة حتى رأينا شيخ ميرغني السنجك والعم عبد الكريـم بـدري بيننـا في المدرسة وكان شيئا لم يكن..

هذه الخصوصية في العلاقة بين التلاميذ والمعلمين والإدارة كانت ميزة لا توجـد إلا في الأحفاد.

ولعل إيجاد مثل هذه العلاقات في شتي المؤسسات أيًا كان نوعـها ؛ كـان ولا يـزال من أهم وسائل ترقية العمل وخلق أجواء تحببه إلى الجميع. هذا شيء لمسـته مـن خـلال تجربتي العملية في الحياة وفي شتي المؤسسات التي كـان لي ضلـع في إدارتـها وهـو أمـر أوصى به كل من رغب أن يديـر عمـلا بيسـر وسـهولة وان يحقـق النجـاح في أجـواء يسودها الحب والرضا بين جميع العاملين.

في مقابلة تلفزيونية أجريـت معـي عـام ١٩٩٢ حـاول مقـدم البرنـامج أن يصـف الأحفاد بأنها كانت (في أيامنا تلك على الأقل) مدرسة " لأولاد المصارين البيض " بمـا يعني الطبقة الأرستقراطية. كان هذا عندما ذكرت أن ضمن من كانوا بروضة الأحفـاد الصادق المهدي واحمد المهدي.

ربما كان ذلك الوصف لأغراض سياسية لست معنيا بالخوض فيها هنا. لكنـني أود

أن اذكر شيئا يعرفه الجميع هو انه لم تكن هناك في السودان طبقات يمكن وصف إحداها بالأرستقراطية. لا في ذلك الزمان ولا الآن. وحتى من كانوا ذوي دخول مرتفعة لا يمكن أن تجد فرقا يذكر في معيشتهم عن بقية الناس في المجتمع الذي يعيشون فيه. والسبب في ذلك بسيط جدا لأن البلد المعنى هو السودان وقد كان ولا يزال حتى اليوم البلد الوحيد الذي تجد فيه تقاربا في مستوى المعيشة وتكافلا اجتماعيا لا تلمسه في المنطقة العربية ناهيك عن بقية العالم. أما في الأحفاد فقد كان يجلس معنا (عبد الرحمن يعقوب الحلو) وابن سائق سيارتهم في نفس الفصل. وزاملنا أبناء فراش الأحفاد (أحمد المصطفى) في الروضة و الأولية و بينما كان البعض (يحضر وبيده المصروفات) كانوا هم يقبلون بالمجان. وكما ذكرت هذا نهج لا يزال يطبق حتى الآن في جامعة الأحفاد للبنات وفى هذا الزمان الصعب..

في المدرسة الثانوية كنا نجيء عصراً إلى المدرسة لممارسة الألعاب الرياضية. وفي يومين من أيام الأسبوع كنا نحضر مساء لامضاء فترة في استذكار ومراجعة الدروس تحت إشراف بعض الأساتذة. غير أننا كنا في فترات الراحة نستمتع بالسمر والغناء وأحياناً "السكسكة" على نغمات العزف على أمواس الحلاقة التي كنا نشطرها نصفين طولاً ونغرسها جنباً إلى جنب في الدرج الخشبي فتبدو وكأنها مفاتيح بيانو أو أورغن. وكان الخبير والعازف الأمهر في هذا هو الزميل عصمت بحيري. فنسير القطار ويصفق بلاط الحجرات تحت أرجلنا مع إيقاع السكسكة:

القطـــر قام برجـا قدام
وما قال بجي ما لو ما جا

وكثيراً ما كان يصل ذلك إلى أسماع المشرف في المكتب البعيد فتكون العقوبات وكثيراً أيضاً ما كنا نفلت من العقاب. . وأحياناً كنا نزوّغ من المذاكرة إلى السينما.

ففي أثناء اليوم الدراسي كنا نتناقل أخبار الأفلام المعروضة في السينما الوطنية وسينما قديس (برمبل سابقاً وأم درمان لاحقاً) وكنا نعرف ونحفظ أسماء نجوم الأفلام المصرية وأفلام هوليود ونعيد الحوارات ونتذكر الحوادث المميزة في بعض الأفلام مثل الصفعة الشهيرة من جلين فورد على خد فاتنة هوليود ريتا هيوارث (زوجة على خان لاحقاً) والتي ارتمت من جرائها على الأرض وذلك في فيلم " جيلدا " والتي كان يؤكد الكثيرون أنها صفعة حقيقية ظلت حديث دوائر السينما لسنوات طويلة والغريب أنه في صيف هذا العام ١٩٩٨م وأنا أقرأ إحدى المجلات الفنية في لندن تحدث أحد الكتاب عن تلك الصفعة وهو ينوه لعرض فيلم بطولة جلين فورد. وكان الأخ محمود كيلة (العميد الشهيد محمود عثمان على كيلة) عميد الجانب السينمائي ومستشارنا في الكثير من شؤونه.

ذلك الانفتاح والتميز الفني الذي كنا نعيشه في الأحفاد الثانوية والذي لم يكن متاحاً لغيرنا من طلبة وادي سيدنا وحنتوب وخور طقت منحنا سعة أفق وإطلالة على العالم الخارجي ساهمت في نمو مواهب الكثيرين منا وأبرزت ما خفي من مقدراتهم في الحياة العملية.

وعلى غير ما قد يبدو فقد تخرج من صفوفنا العديد من ضباط القوات المسلحة المميزين بل كان الكثيرون منهم أوائل دفعاتهم في الكلية الحربية وحملة جوائز التخرج من سيوف ودروع أمثال الشاعر الغنائي الكبير والملحن الموهوب عوض أحمد خليفة والزميل عصمت بحيري بل أن الجسارة العسكرية أوصلت أمثال محمود عثمان كيلة إلى الاستشهاد في بيت الضيافة وقبله عصمت بحيري في جنوب السودان. ودفعت اللواء محمد عبد القادر عمر الصادق وهو رئيس للأركان في عهد نميري أن يبدي اعتراضه ومخالفته لبعض سياسات نميري ويصر على ذلك مما دفع نميري لإقصائه من

القوات المسلحة. ولما رأى بعدها نميري أن يستعين به محافظاً لبعض محافظات السودان لم يتقاعس عن خدمة بلاده بل ذهب ومنع الخمر فيها مطبقاً ما يراه صحيحاً ومتماشياً مع شرع الله. وكان ذلك قبل أن يفكر نميري في منع الخمر أو محاولة تطبيق قوانين الشريعة الإسلامية ـ لم يتردد في ذلك وظل مصراً عليها وممسكاً بزمام أمور محافظته بقوة إلى أن جاء تطبيق الشريعة بعد ذلك. تلك نماذج قليلة من كوكبة متميزة من أبناء السودان كان للأحفاد الفضل في إعدادها لمهام بناء الوطن.

الاعتماد على النفس

من الأشياء التي لا شك كانت تلفت انتباه أي زائر لروضة الأحفاد أن جميع وسائل التعليم المساعدة من أدوات عملية ورسومات ومرئيات أخرى جميعها كانت مصنوعة محلياً ومرسومة في الأحفاد. ولا أذكر أنه كانت بينها أشياء مستوردة من الخارج مثل ما نرى في رياض الأطفال هذه الأيام (ميكي ماوس وباربي وغيرهما).

ولست أشك في أن مسيرة الحياة العملية للشيخ بابكر بدري كان لها ضلع في اتخاذ هذا الاتجاه ـ فقد مارس خلال حياته شتى ضروب الحرف من نجارة وجلادة (المصنوعات الجلدية) وسمكرة. . وغيرها إلى جانب التجارة والتدريس. ومن هنا توصل إلى أنه أن أراد أن يحقق ما يصبوا إليه ويؤسس الأحفاد بالرغم من شح

الإمكانات المتاحة وصعوبة الدعم الذي يمكن الحصول عليه من حكومة الاستعمار في ذلك الزمن ـ فلابد له أن يعتمد على ما يمكن أن تصنعه أيدي القائمين على أمر الأحفاد.

وعليه فقد كانت رسومات شيخ سيد أحمد (سيد أحمد عبد الرحمن) تملأ جدران الروضة موضحة لنا الكثير من الأشياء التي يراد أن نفهمها ونحفظها مستخدمين حاسة الإبصار للاستفادة من فوتوغرافية الذاكرة فينا. وغير ذلك أشياء أخرى كثيرة من صنع العم عبد الكريم بدري جميعها كانت خير عون لتوصيل المعلومة التي يراد لنا أن نتعلمها.

أذكر ونحن في الجامعة الأمريكية ببيروت كنت أقتسم حجرة في داخلية المجلس البريطاني في بيروت مع الأخ مالك بابكر بدري (بروفسر مالك بدري)، وكان الأخ مالك طالباً يدرس التربية في كلية الآداب والعلوم. حكى لي الأخ مالك أنه في بداية دراسة مادة "السمعيات والبصريات المساعدة" Audio Visual Aids أن الأستاذ شرح لهم ضرورة الاعتماد على الذات في صنعها من المواد المتاحة محلياً لكل منهم في بلده. وأنه كلف كل منهم بأن يقوم بصنع أحد هذه الأشياء على أن يعتمد كلياً على مواد تتوفر في البلد الذي جاء منه أو في البلد الذي ينوي أن يمارس مهنة التدريس فيه.

وهكذا قام الأخ مالك بدري بصنع (جهاز التقاط الصور على الشاشة البيضاء او غيرها) " Projector " مستخدماً صندوق خشب فارغ ابتاعه من بقال مجاور ومصباح كهربائي وسلك كهربائي وتم التصنيع والتجريب في الغرفة التي كنا نقيم بها.

ولما كان الصندوق الخشبي في الأصل صندوقاً لحفظ لحمة البولبيف وكان الأخ

مالك يمارس تجاربه في فترة ما بعد الظهيرة والتي غالباً ما أكون فيها بالمعامل بكلية الصيدلة ـ فقد كنت دائماً اصدم برائحة اللحمة تغمر جو الغرفة ساعة فتحي للباب وطبعاً كانت الحرارة المولدة من المصباح داخل الصندوق ـ آسف أل Projector ـ تثير رائحة اللحمة المعبق بـها الخشب فتنبعث معطرة أجواء الغرفة بروائح هي آخر شئ أكون في حاجة إليه بعد الساعات الطويلة التي أكون قد أمضيتها في معمل الكيمياء الوصفية " Qual itative Chemistry " وملء أنفاسي روائح أملاح حامض كبريتور الأيدروجين " Sulfides " وشبيهاتها.

وكنت قد رجوت الأخ مالك مراراً أن يمارس تجاربه في الكلية أو أي مكان آخر. ولكن البروفيسور ذو العقل التائه " Ababsent minded Professor " كان مجرد ما تطرأ له فكرة تعديل في أل Projector يشرع فيها فوراً ممضياً الساعات الطوال منسجماً تماماً مع تجاربه لا تلهيه عن ذلك روائح البولبيف أو غيرها ناسياً رجائي وتحذيري أحياناً عما يمكن أن يصيب أل Projector من مكروه إن أصر على معاودة التجارب في الغرفة.

وهكذا جاء بروفيسور مالك بدري ابن الأحفاد لحماً ودماً وتربية وتعليماً ـ جاء إلى الجامعة الأمريكية ببيروت ليتعلم أن عليه أن يصنع الوسائل المساعدة من سمعيات وبصريات من المواد المحلية، نفس الشيء الذي كان يفعله الشيخ بابكر بدري في الأحفاد بأم درمان وقبل أكثر من ربع قرن من ذلك الزمان ـ بل إن الشيخ بابكر بدري بدأ ذلك في أوائل القرن العشرين برفاعة حيث صنع كرة أرضية من القرع ـ على سبيل المثال.

طوال سنوات دراستنا بالأحفاد منذ الروضة وحتى الثانوي .لم نكن نعرف شيئاً اسمه الدروس الخصوصية كما هو الحال الآن في جميع مراحل الدراسة قبل الجامعية.

وأغلب الظن أن وباء الدروس الخصوصية قد استشرى في الجامعات أيضاً في هذا الزمن الصعب الذي ترتفع فيه مصاريف الدراسة إلى أرقام كانت تعد فلكية بالنسبة لنا .

منذ الروضة ابتداءاً بالشيخ بابكر بدري وحتى الثانوي انتهاءاً بالأساتذة فتحي أمبابي وأحمد عبد اللطيف محسن والأغلبية العظمى من الآخرين الذين يضيق المقام عن ذكر أسمائهم ، كل هذه الكوكبة من الأساتذة كنا ندخل الفصل بتطلع ورغبة شديدة لدروسهم كأنما المدرس أحد نجوم السينما الذين يشدونك ويستحوذون على انتباهك من أول الحصة وحتى نهايتها . وكمثال لا أظن أن أحداً من الزملاء يمكن أن ينسى دروس التاريخ التي كان يحاضرنا فيها الأستاذ الكبير عبيد عبد النور ولا أشك أن كل منهم لا يزال يتذكر الأستاذ عبيد وكيف كان يروي لنا The Rise of Bismarck بطريقة تمثيلية لا يمكن لأي إنسان أن يطرف بصره في أثنائها خوفاً من أن تفوته كلمة أو حركة .

وكنا نخرج من الفصل وقد استوعبنا الدرس تماماً وكانت مجرد قراءة سريعة للكتاب المقرر تكفي معظمنا وقد سمعت من بعض الأساتذة وخبراء التربية أن الانتباه في الفصل له الفضل الأكبر في استيعاب الدروس .

وعليه فقد كنت أنصح أبنائي وبناتي دائماً بالانتباه في الفصل وبحمد الله لم أكن بحاجة إلى إحضار من يدرسهم بالمنزل إلى أن أتموا تعليمهم .

النبطشية :

في الأحفاد الأولية والسنوات الأولى من المرحلة الوسطى كنا نقسم إلى مجموعات صغيرة تأخذ دورها فيما كان يسمى بالنبطشية .

وكان على المجموعة التي عليها الدور في النبطشية الحضور مبكرة في ذلك اليوم والقيام بكنس ونظافة الحجرة الدراسية حتى تكون نظيفة ومرتبة عند بدء الدراسة في ذلك اليوم.

لست أدري ماذا سيكون رد الفعل لو أرادت إدارة إحدى المدارس تطبيق هذا النظام في أيامنا هذه ولست أدري إن كان هناك استمرارية لمثل هذه الممارسة في المدارس الآن. غير أن الذي أدريه جيداً إن النبطشية قد غرست فينا الاعتماد على النفس للتأكد من أن غرفنا في المنزل ومكاتبنا يجب أن تكون على مستوى جيد من النظافة والترتيب حتى مع وجود العمالة التي تقوم بذلك ـ وبطريقة تلقائية دون أن نفكر في الأمر.

في أواخر السبعينات وقد كنت في زيارة عمل في فرانكفورت بألمانيا نزلت كعادتي منذ زمن طويل بفندق ناشونال الذي اعتدت النزول به منذ أول زيارة لي لمدينة فرانكفورت وبالطبع نمت صلة ود بيني وبين الإدارة والعاملين في الفندق وأصبحت أجد معاملة مميزة حتى في أشد الأوقات ازدحاماً وتعذر وجود الحجز في جميع الفنادق الأخرى.

وفي إحدى المرات كنت واقفاً أتحدث مع موظف الاستقبال فذكر لي أن واحدة من عاملات النظافة بالفندق قالت له: " لو أن جميع النزلاء كانوا مثل الدكتور شبيكة لشردنا وأصبحنا بدون عمل. ذلك لأننا كلما دخلنا الغرفة عقب مغادرته لها وجدناها في غاية النظافة وكأنه لم يكن بها نزيل قد غادرها منذ قليل " .

لست أشك أن غرس "النبطشية" ما زالت جذوره ثابتة بدواخلي وأظن أن الأمر كذلك مع معظم من كانوا معي بالأحفاد.

وما زلت أذكر جيداً أول اجتماع صباحي عند انتقالنا إلى المباني الجديدة للمدرسة

الثانوية بحي العرضة وفيه تحدث العميد يوسف بدري وكان من ضمن ما تحدث عنه أنه لفت نظرنا إلى المزيرة والمراحيض الجديدة وإلى مستوى نظافتها الجيد. وقال أنه لا بد لنا المراعاة عقب استعمالها أن نتركها في نفس مستوى النظافة الذي وجدناها عليه في البداية والمستوى الذي نحب أن نجدها فيه حينما نريد استعمالها مرة أخرى.

النهج التربوي الديمقراطي

في نهاية العام الدراسي للسنة الثالثة الأولية ـ استدعاني الناظر يوسف بدرى أنا وصلاح اليسع خليفة وقال لنا إن مستوانا الدراسي ضعيف وربما كان ذلك يرجع لصغر سننا وانه يرى أن نعيد السنة الثالثة الأولية حتى نتقوى اكثر ـ ولكنه لا يمانع في نفس الوقت أن ننتقل إلى السنة الرابعة بشرط أن يجلد كل منا عشر جلدات.

واضح من هذا انه بدأ بان طرح ثم شرح لنا المشكلة وربما الأسباب أيضا ثم بعد ذلك ابدي رأيه والذي كان يمكن أن يكون الرأي والقرار في نفس الوقت بحكم موقعه.

إلا انه عاد وطرح لنا خيارا أن أردنا الأخذ به فيجب علينا أن نظهر من الحماس والإصرار على تحسين مستوانا ما يجعلنا نقبل ما يترتب على ذلك من جلد.

قبل صلاح بالعشرة جلدات مع الانتقال إلى السنة الرابعة ورفضت أنا ذلك

وفضلت الإعادة. ولعله أراد أن يتأكد من أننا قد تفهمنا المشكلة جيدا وان الحلول التي ارتضيناها تنبع من ذلك الفهم لا من خوف العقاب أو الاستهانة به. فعاد وقال " طيب ممكن أن نعفيكما من الجلد وننقلكما للسنة الرابعة بالرغم من ضعف مستواكما الدراسي ـ فما رأيكم " قبل صلاح بالطبع ـ ولكن الناظر فوجئ برفضي الانتقال إلى السنة الرابعة من دون جلد وأظنه سر بأنني قد فهمت إن رأيه هو الأصح وأنني قد اقتنعت به وان رفضي الانتقال إلى السنة الرابعة لم يكن خوفا من العقاب وانما عن قناعة تامة بان السنة الرابعة اكبر من مستواي الفعلي.

وهكذا افترقنا صلاح وأنا لاول مرة منذ الروضة. ذهب إلى السنة الرابعة واعدت فصل السنة الثالثة. وفى نهاية العام الدراسي انتقلت إلى السنة الرابعة وقد تحسن مستواي الدراسي لاجد صلاح في انتظاري وهو يعيد السنة الدراسية.

لم اعرف ولم اسمع أبدا بمثل هذا النهج التربوي والأسلوب الديمقراطي في التعامل من قبل الناظر في ذلك الزمان نحو تلاميذ في حوالي السابعة من أعمارهم.

من أين ليوسف بدرى الصيدلي والقادم الجديد لمهنة التعليم ـ من أين له هذا النهج التربوي المتقدم جدا والذي يسبق ذلك العصر بمراحل عديدة ؟ فهو أولا أراد أن نقف بأنفسنا على ضعف مستوانا الدراسي وثانيا ترك لنا حرية القرار لنكون مسؤولين عن القرار الذي نتخذه. وثالثا عمد إلى تصحيح الخطا دون اللجوء إلى العقوبة وذلك لعمري غاية الإصلاح.

لعل ذلك كان أول دروس الديمقراطية بالنسبة لي في التعامل الإداري مع من رأستهم خلال حياتي.

كانت هناك جريدتان حائطيتان في مدرسة الأحفاد الثانوية. الأولى يرأس تحريرها حسين بازرعة وكان الفاتح عبد الله حامد سكرتيرا لتحريرها واسمها " الندى ". أما

الثانية واسمها " الفرفشة " كنت ارأس تحريرها بينما يقوم عصمت بحيرى بمهام سكرتير التحرير وكنا جميعا في فصل واحد.

كانت " الندى " ذات طابع أدبي بينما اتجهت " الفرفشة " إلى الفكاهة ومشاغبة الزملاء والأساتذة والإدارة في قالب كنا نحرص ألا نخرج فيه عن حدود الاحترام والأدب.

ولما كان حسين بازرعة يكتب " الندى " بخطه الجميل المعروف وحرصا علي المنافسة في المظهر والإخراج فقد عهدت إلى صديقي احمد السيد الفكي بكتابة " الفرفشة " حيث كان خطه لا يقل جمالا عن خط حسين بازرعة وكان احمد وقتها في مدرسة فاروق الثانوية.

وكان لابد أن تولد المنافسة بين الجريدتين مشاحنات أدبية ومشاغبات فكاهية حرصنا ألا تؤدى إلى إفساد الزمالة بيننا. وكنت من اشد المعارضين لنظام قفل البوابة الخارجية في تمام الساعة السابعة والنصف صباحا ومن يأتي بعد ذلك يسلم للصول بخيت سوميت ليأخذ نصيبه من الجلد بعدها يسمح له بدخول المدرسة. وذات يوم كتبت في " الفرفشة " مقالا ناريا هاجمت فيه ذلك النظام وشبهت المدرسة بالسجن الذي يظل فيه الطلبة المتاخرون يرتعدون خوفا من خلف درابزين البوابة في انتظار حضور السجان الصول بخيت حاملا سوطه ليلهب به أجسادهم. وتطاولت فيه بالحديث عن أصول التربية مهاجما الإدارة ومشككا في جدوى مثل ذلك الأسلوب في تعليم الطلبة الانضباط.

ثم اخترت عنوانا اكثر بجاحة من جميع ما ورد في المقال جاء في صدر الجريدة وهو " ما هكذا تقاد الإبل يا عمر . " وبعد نشر ذلك العدد جاءني بعض الزملاء مشيدا بما كتبت ومحرضا على المزيد بينما حدثني البعض الآخر بأنني " زودتها شويه " وأنذروني بان استعد لعقاب اليم.

المهم وفى أثناء الفسحة الثانية جاء من يخبرني بان العميد واقف يقرا في " الفرفشة " . فذهبت ووقفت بجواره اتامله بطرف عين وهو يقرا المقال محاولا أن أتلمس ما يدور بخلده. ودهشت وأنا أراه يبتسم بين الفينة والأخرى حتى انتهى وانصرف وعلى وجهه ابتسامة عريضة دون أن أحظى بشرف الاهتمام بأنه لاحظ مجرد وقوفي بجواره.

وانتهى اليوم الدراسي ولم يستدعني أحد لمكتب العميد. ومثله مرت الأيام التالية وهكذا " كأنا يا بدر لا رحنا ولا جينا " أو " كأنا يا عمرو لا رحنا ولا جينا ".

وتوالت الأيام ولم يحدث أي تغيير فيما كان عليه الحال من نظام الانضباط. ولعل التغيير الوحيد الذي لاحظته هو أن عدد الطلبة الذين كانوا يجلدون اخذ يتناقص. لم يكن ذلك بالطبع من تأثير المقال الذي كتبت وهاجمت فيه الإدارة ولكن لأننا صرنا اكثر انضباطا ـ ولعلنا أدركنا انه من الخير لنا أن نترجم رفضنا لأسلوب العقاب بأن نفشل هذا المشروع من أساسه ونكون في غاية الانضباط. وللحق ومنذ تلك الأيام تنامت لدى عادة الدقة في المواعيد واحترام الوقت وتطورت اكثر بعد التحاقي بالجامعة الأمريكية ببيروت وتوطدت حينما بدأت التعامل مع الشركات الألمانية في مجال استيراد الأدوية.

أرجو ملاحظة الآتي :

١ـ لم تكن هناك حاجة لأن نطلب إذنا من إدارة المدرسة لإصدار جريدة حائط..

٢ـ لم تكن هناك رقابة من أي نوع على ما نكتب ولنا مطلق الحرية أن نكتب ما نشاء ونحن الرقباء على أنفسنا وعلى بعضنا البعض..

٣ـ حين كتبت المقال أعلاه كان عمري قد تجاوز الخامسة عشرة بقليل..

٤- إن كان أى من أبناء جيلنا قد عرف مثـل هـذه الممارسـات الديمقراطيـة وحريـة الرأي والتعبير لدى طلبة المدارس الثانويـة الأخـرى أرجـو أن يتفضـل علـى بإضافة ذلك إلى معلوماتي. والى أن يتم ذلك ستظل الأحفاد عندي هـي الرائـدة والمتفردة في هذا المجال ومنها تعلمنا أن نجاهر برأينا بمنتهى الوضوح والشـجاعة لا نخشى في ذلك لومة لائم ولا نتردد فيه خوف العواقب..

ومنذ عهد الدراسة بالأحفاد الثانوية والى اليوم أجد نفسي دائـم الالـتزام بـالمواعيد وبدقة شديدة.

في نـهاية الدراسة بكلية الصيدلة بالجامعة الأمريكيـة ببـيروت كـان يكتـب تقريـر شامل عن كل طالب يرفع لمجلس الكلية يشمل المستوى الأكاديمي وعن مدى مشاركة الطالب في الأنشطة الاضافية للمنهج "Extra Curriculum ... Activities" كمـا يشـمل نسبة المواظبة لحضور المحاضرات وحصص المعامل والأنشطة الرياضية والثقافية . الخ ويرصد كل ذلك بدقة على مدى الأربع سنوات التي يقضيها الطالب بالكلية وتستثنى فقط سنة الفرشمان التي كنا نقضيها في كلية الآداب والعلوم .

School Of Arts and Science

في نهاية الدراسة وقبل صدور النتائج النهائية قالت لي الآنسة ميرى سكرتيرة الكلية أن مجموع غيابي خلال الأربع سنوات كان نصف محاضرة فقط. وأنني لم استعمل أبدا حقي في النسبة المسموح بها من الغياب بنظـام ال .Cuts وأبـدت ملاحظتـها بـأن هـذه الحالة تعد الأولى من نوعها وأنـها لم تشـهد مثيـلا لهـا طـوال عملـها بالكليـة. وبعـد التقصى عن سبب غياب نصف المحاضرة تلك اتضح انه ونحن في السنة الثالثة طلب لي إذن بالغياب من إحدى المحاضرات لأنني كنت ضمن اللجنـة المنـاط بـها الإشـراف على انتخابات الجمعية الصيدلية بالكلية وكانت الانتخابات سـتجرى في نفـس ذلـك

اليوم. وبالفعل تغيبت عن بداية المحاضرة وبما إننا أتممنا عملنا بسرعة فقد تمكنت من الرجوع إلى القاعة لحضور النصف الثاني من المحاضرة وسجل الأستاذ أنني حضرت نصف المحاضرة فقط.

في عام ١٩٨٧ أقام مستر كلاين هنز (الألماني الجنسية) ـ والذي كان يعمل مديرا للمكتب الفني والاستشاري لشركة هو كست بالسودان ـ أقام حفلا في منزله بمناسبة سفره نهائيا من السودان. دعا إليه بعض عملاء الشركة وأعضاء السفارة والجالية الألمانية بالخرطوم. وكنت من المدعوين لأننا كنا وكلاء شركة هو كست في السودان. كان موعد الحفل الساعة السابعة مساءا وكنت بالفعل أمام المنزل في الموعد وحضر أحد المدعوين الألمان وزوجته. وفى الساعة السابعة بالضبط وضعت إصبعي اضغط على زر جرس الباب الخارجي. فتح الباب ودخلنا واستقبلنا المستر كلاين هنز وزوجته ضاحكين وقال لنا انه عندما سمع الجرس نظر إلى ساعته فوجدها السابعة تماماً فقال لزوجته هؤلاء بالطبع هم الألمان من الضيوف أما البقية فيحضرون بعد ذلك. وبالفعل كان حضور أول سوداني بعدى في الساعة السابعة والنصف بينما توافد جميع الألمان في الموعد المحدد تقريباً .

الزراعة

في السنة الرابعة الأولية نُقل فصلنا إلى غرفة ببنك الصمغ والذي كان يقع غـرب المدرسة مباشرة في المبنى الذي تشغل مكتبة البشير الريح جزءا منه الآن. وأغلب الظن أن دواعي الانتقال تعود إلى بدايات فتح فصول المدرسة الثانوية بنين والتي لم يكـن بناؤها قد أقيم. فلذا توجب تخصيص بعض الحجرات لطلبة الأولى والثانية بالمدرسة الثانوية للبنين ـ وعليه كان انتقالنا إلى بنك الصمغ.

كانت هناك مساحة واسعة تستغل في نشر الصمغ على بروش مصنوعة من سعف النخيل حيث تقوم بعض النساء بتنقيته وفرزه يدوياً. وبالطبع توقف ذلـك العمـل عقب انتقالنا إلى ذلك المبنى. وظل الفناء خالياً لوقت دون أن يشغله اي مبنـى أو عمل آخر.

وفي يوم جاء العم عبد الكريم بدري مدرس الحساب ـ جاء ورأيناه يقف في الفناء معه من يساعده وقام بتخطيط وتقسيم الساحة إلى أحواض، ثم جاء وقسمنا إلى مجموعات أوكل لكل مجموعة منها مهمة القيام بحرث وري وزراعة حوض منها. وبالطبع قام بشرح وتوضيح كل ما كان يجب علينا أن نفعله وأتى لنا بالبذور ولاحقاً ببعض السماد.

.ولم تمض أسابيع قليلة إلا وكنا قد زرعنا الطماطم والبامية والملوخية وأنواعا أخرى من الخضراوات بعد أن أرشدنا العم إلى متى تزرع البذور ومتى تروي وكيف ننظف الحياض وفي نهاية العام الدراسي كان النجاح الذي أحال تلك المساحة اليباب إلى خضرة ونضرة تسر الناظرين وتفتح شهية الآكلين ـ كان ذلك النجاح حافزاً للكثير منا أن يحاول إعادة التجربة في منازلهم. والمنازل آنذاك تتميز بالحوش الكبير الذي ينام فيه القاطنون ليلاً.

وهكذا ونحن لم نبرح المدرسة الأولية بعد ؛ كان الفرد منا يصلح أن يكون مساعد مزارع على الأقل ؛ وكنا نعرف الكثير عن زراعة الخضراوات بالذات وكانت بلا شك تجربة مفيدة وجديدة علينا اللهم إلا من كان منا من أبناء توتي أو شمبات.

ولما كان القطن هو المحصول الرئيسي للثروة القومية في السودان ـ وكذلك الذرة. فقد زرعنا عدد ا قليلا جداً من أشجار القطن والذرة لنتعرف عن قرب على أكثر المزروعات أهمية في ذلك الوقت في السودان. وتبع ذلك شرح من العم عن أنواع القطن مثل السكلاريدس وطويل التيلة وعن الذرة وأنواعها مثل الفتريتة والقصابي والفكي مستحى (وهو نوع تنحني فيه السنبلة إلى أسفل).

وهكذا وأنا في الرابعة بالمدرسة الأولية كنت أعرف شكل وطرق زراعة الكثير من

الخضراوات والمحاصيل في السودان. معرفة شكل أشجار المزروعات تذكرني بواقعة طريفة.

في نهاية السنة الأولى بالجامعة الأمريكية (Freshman) حضر والدي إلى لبنان وكان الوالد يعتزم إجراء عملية (CATARACT) أو ما يسمى بالماء البيضاء في عينه أو إظلام عدسة العين فاصطحبني معه إلى أثينا باليونان حيث كان الدكتور بابادام قد رتب له كل شيء في مستشفى أفنجليزموس. ودكتور بابا دام كان أحد أفراد عائلة بابا دام الشهيرة في الخرطوم آنذاك وكانت تربط الوالد بهم صلة صداقة وطيدة خصوصاً آدم بابادام.

بعد إجراء العملية بنجاح ذهبت مع الوالد إلى بلدة تدعى Thermasela ثيرماسيلا بها حمامات مياه معدنية نُصح الوالد أن يقضي فيها بعض الوقت. في الطريق من أثينا إلى ثيرماسيلا كان القطار يمر بمزارع ممتدة بها أشجار قصيرة (لا يزيد طولها عن المتر فوق الأرض) وكانت تغطي مساحات كبيرة على مدى البصر.

فسألني الوالد إن كنت أعرف اسم هذا الشجر المزروع. وكانت أوراق الشجرة تشابه أوراق شجرة اللوبيا إلى حد كبير وتماثلها في الحجم فلم أتوانى إن قلت له إنها لوبيا خصوصاً وأن اللوبيا كانت من ضمن الخضراوات التي زرعناها في الأحفاد.

فضحك الوالد وأفهمني أن هذه أشجار عنب. ولما كانت لدينا في زمن مضى شجرة عنب واحدة بالمنزل وكانت طويلة من النوع الذي يتسلق التعريشة أو الجدار- استغربت جداً لذلك خاصة وإنني حتى ذلك الوقت لم أكن قد رأيت مزارع العنب

في لبنان أو في أوربا لاحقاً ـ وكل معرفتي بتلك الشجرة تنحصر في العنبة التي كـانت بمنزلنا وربما أيضاً بما جاء ذكرها في أحد الأغاني : شتلوك وين يا العنب . أما الأغنية الحديثة والتي تقول : اسأل العنبة الرامية فوق بيتنا . فقد جاءت تأكيداً لظـني الأول أن أشجار العنب تكون طويلة ومتسلقة .

إن هذا الدين مكين فأوغلوا فيه برفق

لم تكن حصص الدين الإسلامي في روضة الأحفاد والمدرسة الأولية تختلف كثيراً عن غيرها من الحصص الأخرى بالنسبة لنا ـ بمعني أنه لم يكن هناك جو الرهبة والعقوبات الصارمة مثل " الفلغة " وغيرها والتي كنت أراها في زياراتي لخلوة عمي علي بمسجد الهاشماب أو خلوة الفكي ود سعد بالموردة. بل أن الدروس كانت تعطى لنا في نفس القوالب المثيرة للفضول والتي يتبعها الترغيب والمكافأة على الحفظ والاستيعاب الجيد.

إضافة إلى ذلك فقد كنا نجد في الأسلوب القصصي في شرح السيرة وشرح آيات القرآن الكريم ما يجسد لنا القدوة الصالحة ويدفعنا إلى محاولة أتباعها ويبغض إلى نفوسنا الكفر والمعاصي فنجد أننا نبتعد عنها بشكل طبيعي جداً لا تكلف فيه ولا

خوف ولا أظن أن أحداً منا ينسى حصص الدين في الأحفاد الثانوية والتي كان يدرسها مولانا الشيخ إبراهيم مالك.

كانت تلك الحصص من أمتع الحصص التي نرقب مواعيدها بفارق الصبر. فقد كان الشيخ إبراهيم مالك وهو رجل القضاء الشرعي قد خبر الحياة وخبر الناس وممارساتهم الدينية من الواقع المعاش في السودان. ولذلك كان شرحه واستشهاده قريباً من عقولنا سهلاً علينا فهمه.

إضافة إلى ذلك كان الشيخ إبراهيم مالك رجلا خفيف الظل ساخرا حاضر النكتة وله من التعليقات والملاحظات ما يضفي على الفصل جوا من المرح والبهجة يجعل كل من في الفصل دائم الابتسام طوال الحصة، مخالفاً في ذلك الكثير من أساتذة الدين الذين يظنون أن الحزم والرهبة والتكشيرة لازمة لمظهر رجل الدين وهى التي تجبر الطلبة على احترامه. إضافة أخرى لم أعرف مثلها في أي من الخلاوي أو المدارس الأولية كانت في غاية الأهمية والفعالية في سرعة حفظنا لقواعد الإسلام وفروض الصلاة والحج والصوم والزكاة.. الخ.

كانت تلك هي أن الشيخ بابكر بدري طيب الله ثراه ـ كان قد وضع كل تلك الأشياء في قوالب شعرية سهلة الحفظ بدرجة تشبه الإعجاز. فقد كنا نكاد نحفظ الأبيات من القراءة الأولى ـ وأشهد الله إنني حتى بعد أن صرت أباً وجداً لا أزال أحياناً أرجع إلى بعض تلك الأبيات لاستيضاح الفروض والقواعد.

الحج فرض مرة في العمر أركانه إن تركت لم تجبر
الإحرام والسعى وقوف عرفا ليلة الأضحى والطواف ردفا
صيام رمضان وجبا في رجب شعبان صوم ندبا

كنت أستمع من الراديو إلى حديث ديني وكان الموضوع عن أولى العزم من الرسل.

لاحظت إن المتحدث كان يتلكأ عندما يريد تسمية أولى العزم من الرسل وأحيانا يذكر الاسم مرتين دون ترتيب معين.

وعلى الفور استحضرت ذاكرتي عبر أكثر من نصف قرن البيت الذي حفظته في الأحفاد الأولية :

محمد إبراهيم موسى كليمه ونوح وعيسى هم أولى العزم فأعلم

وهكذا فعندما بدأت اصلي لم يأمرني أحد بالصلاة ولم يضربني أحد لأصلي.

وأذكر جيداً أننا ونحن أطفال في المدرسة الأولية كنا نتطوع لصوم بعض الأيام في شهر رمضان وكثيراً ما كان يفاجئنا شيخ بابكر بدري فنجده واقفاً أمام الفصل ومعه جردل فيه ماء ويحمل كوزاً في يده يملؤه لنشرب منه قبل أن يسمح لنا بدخول الفصل قائلاً: أنت لم تبلغ بعد .

قد يعجب المرء لهذا الأسلوب المتقدم في التربية الدينية والذي كان متفرداً في ذلك الزمان إلا أنني حين أتذكر أن الشيخ بابكر بدري بدأ حياته مجاهداً في سبيل الله أدرك أن الذي يترك كل شيء في الحياة الدنيا ويحمل سيفه ويلبس الجبة المرقعة ويمضي لإعلاء كلمة الدين والحق فيقاتل ويقع في الأسر ـ كل ذلك لا يثنيه أو يقعده عن الجهاد ـ أدرك أن هذا الرجل لابد أنه فهم الإسلام فهماً صحيحاً وأن الله جعله من الذين اهتدوا وزادهم هدى وهداهم إلى خير الطرق لهداية وتربية الأجيال. فالحمد لله الذي قيض لي أن أعيش عصر بابكر بدري وأن أتلقى أول دروس الحياة والدين على يديه وفي روضة ومدارس الأحفاد.

حب الرياضة

في سنوات الدراسة المبكرة في الأحفاد ؛ كان للرياضة البدنية حظ وافر من الاهتمام.وكان لها أوقات مخصصة سواء في الصباح الباكر قبل بدء اليوم الدراسي أو عصرا في بعض أيام الأسبوع.

لا أزال اذكر الأساتذة " شيخ الدين جبريل و إبراهيم إدريس وهم يقودون المسيرة الرياضية بهمة ونشاط يرتدون البنطلونات وال T SHIRTS البيضاء ويتقدمون طوابير المناشط بقامات منتصبة ونشاط دائم حبب ألينا الرياضة منذ وقت مبكر في حياتنا. كانوا دائما مثلا أعلى لنا. وكنا ونحن صغار نتطلع ألي اليوم الذي نماثل فيه قاماتهم طولا واعتدالا. وبخلاف المناشط والمسابقات الرياضية المختلفة والتي كانت تقام بالمدرسة. كانوا حريصين أن نحضر اليوم الرياضي الذي تقيمه المدارس العليا في جامع

الخليفة بامدرمان ؛ والذي عرفنا وحبب إلينا ضروبا مختلفة من الرياضة بخلاف كرة القدم وكرة السلة.

ولا زلت اذكر بعض أبطال تلك الرياضات مثل ادهم في القفز بالعمود والمنافسة الحادة في سباق المسافات القصيرة بين حامد علي شاس ومحمد عوض. أما في الأحفاد الثانوية فقد تيسر لنا ممارسة كل تلك الرياضات من كرة قدم وسلة والعقلة والمتوازيين والحصان والملاكمة و و . الخ. حتى أصبحت الرياضة بشتى ضروبها من الاهتمامات الممتعة في حياتي حتى اليوم.

وفي الجامعة الأمريكية ببيروت أضفت ألي ممارساتي الرياضية (التنس) والسباحة. غير أن ساعات الدراسة الطويلة فى معامل كلية الصيدلة لم تمكنني من ممارسة مختلف الرياضات بالقدر الذي أحببت. ومع ذلك فقد كنت نائب الكابتن لفريق كرة القدم بكلية الصيدلة كما كنت بطل سباق المسافات الطويلة لمدرسة الدراسات الطبية FACULTY OF MEDICINE والتي تشمل كليات الطب والصيدلة والصحة العامة والتمريض . واذكر جيدا انه ونحن في السنة النهائية بكلية الصيدلة جاء البروفسير عبد الستار الطرابلسي رئيس قسم الرياضة البدنية بالجامعة وأشار ألي ضرورة مشاركة المزيد من طلاب الدراسات الطبية في اليوم الرياضي للجامعة. أصر بروفسر طرابلسي أن اشترك في سباق أل ١٥٠٠ متر .وحاولت التملص بشدة من المشاركة متعللا بان موعد اليوم الرياضي لم يتبق له سوى أسبوعين وأنا لم أتمرن منذ أمد بعيد ولم يعد هناك وقت لذلك. ولكن بروفسير طرابلسي أصر وقال لي أن الفوز ليس هو الأمر المهم ولكن الأهم هو المشاركة والتي لا بد لي منها إذ أن عدد المشاركين من كليات الدراسات الطبية ضئيل جدا وسيكون مظهرا غير سار مقارنة مع الكليات الأخرى.

وهكذا وضعت ترتيبات اشتراكي في السباق بان سمح لي أن أتغيب عن المعامل في

يومين اجري فيهم التدريب ؛ على أن أقوم بعملى فى المعامل في عطلة نهاية الأسبوع. وبالرغم من أن ترتيبي لم يكن متقدما إلا أن مشاركتي كان لها وقع جميل لدي الجميع في الكلية ولدى بروفسير طرابلسي بشكل خاص. وقد أضافت إلي الكثير من حب الرياضة في شتى ضروبها وظللت أتابع جميع المنافسات العالمية حتى يومنا هذا

وفي هذا الشهر استمتعت بمتابعة مباريات كاس العالم لكرة القدم المقامة بفرنسا وكذلك ببطولة ويمبلدون لكرة المضرب. وهكذا نما غرس حب الرياضة في نفسي وهي الآن مع تقدم السن من أمتع الأشياء في حياتي - اعرف أبطالها العالميين واحرص على تتبع دوراتها وتسجيل بعضها بالفيديو.

أعوذ بك من غلبة الدَّين

كانت حبوبة النعيمة معلما هاما في مدرسة الأحفاد الأولية. فمنها كنا نشتري التسالي والنبق في الفسحة بين الحصص. وكانت امرأة طيبة جدا تعاملنا في أمومة وبشاشة دائمتين.

وكثيرا ما كنا نستدين منها حين نستنفد كل المصروف اليومي في الإفطار ولكننا كنا سريعا ما نسدد ذلك الدين في اليوم التالي أو الأيام القليلة التي تليه على أسوا الفروض.

وفي يوم من أيام العطلة الصيفية تذكرت أني مدين لحبوبة النعيمة بمبلغ قرشين ونصف وكان ذلك في آخر يوم للدراسة دون أن أتذكر أن غدا ستبدا العطلة الصيفية ولم تلفت هي نظري لذلك. وحملت هما عظيما فيما يمكن أن تظنه بي. وعن الكيفية

التي يمكن أن اسدد بها ذلك الدين. ولم نكن ندري أين تسكن حبوبة النعيمة. لكن ذلك لم يثنيني عن سؤال كل من يعرفها دون جدوي. واخيرا قال لي أحدهم انه يراها تأتى من ناحية الموردة كل يوم. وهكذا بدأت تركيز السؤال عنها عند الذين اعرفهم من حي الموردة. أخيرا قال أحدهم أن منزلها أمام منزل " الدغا ميس " جمع دُغْماس ؛ وهو لقب كان يشتهر به اخوة أربعة من فتوات الموردة المشهورين والذين كان أكثرهم يحملون أسماء اشتهروا بها مثل كبس الجبة وراس الميت و. . . و. . . واسقط في يدي حين تيقنت من ذلك. إذ كيف يمكن لي أن اسعي بقدمي ألي عرين الأسد. وكيف يمكن أن اجتاز الخط الأحمر واذهب أمام منزل الدغا ميس دون أن أتعرض لشر مستطير.وطال ترددي وتفكيري ومعه ازداد همي من الدين ومما قد تظنه حبوبة النعيمة وكيف يمكن أن أقابلها بعد اقل من ثلاثة شهور إن لم اسدد ما علي من دين.

وفي يوم اشتد بي الضيق ولم ادر إلا وأنا أمام منزلهم أسال عن حبوبة النعيمة وعيناي تكادان تنظران خلفي ترقبان منزل " الدغاميس " .استقبلتني بدهشة وسرور بالغين مستفسرة عن سبب قدومي ؛ وما أن علمت بالسبب وأنا امدد لها يدي بالقروش حتى احتضنتني وعاتبتني على تكبد المشقة وعدم الانتظار حتى تفتح المدرسة. وهكذا خرجت بعد أن نزل مني هم الدين وخرجت وقد امتلأت جيوبي بتسالي أصرت أن احمله هدية منها. وخرجت بسلام وهي تودعني خارج المنزل .

منذ تلك التجربة وحتى اليوم تجدني أتحاشى بقدر الإمكان الدخول في أي نوع من الديون وان اضطرتني ظروف العمل التجاري أو غيره لذلك ـ يصبح هذا الدين همي الأوحد ليلا ونهارا حتى أقوم بسداده. .

كانت تلك تجربة في مرحلة الطفولة في الأحفاد إلا أن آثارها لازالت تلازمني حتى اليوم. .

الكشافة

في الفصل الثالث من المدرسة الثانوية طرح المستر جيف " Jeff " مدرس اللغة الإنجليزية فكرة عمل فرقة كشافة.

استهوتنا الفكرة نحن ثلاثة من الأصدقاء ـ التجاني فضل الله و عبد الله حسن عثمان اسحق وشخصي ؛ التحقنا بالفرقة التي كانت تمارس نشاطها عصرا في بعض أيام الأسبوع. وتعلمنا مبادئ وتعاليم الكشافة وفوائد العصا والحبل وأنواع العقد والأغراض المتعددة التي نستعملها فيها واختلاف أنواعها مثل " شبشانك و ريفنوط .الخ "

تعلمنا أيضا مبادي الإسعاف الأولية لشتى أنواع الحوادث وكيف تحمل المصاب وكيف تعالج الغريق . . وللحق فقد كانت الفرقة الكشفية مفيدة وشيقة في بادئ الأمر .

عقب اجتيازنا للمرحلة الأولى وامتحانها تقرر أن نقوم برحلة إلي جزيرة توتي لاقامة معسكر هناك ؛ تبدا الرحلة عصر الخميس ونبيت الليل في المعسكر ليحضر العميد في ضحى اليوم التالي لتقليدنا علامة العضوية " تندر فوت tender foot " وهو ما يشبه الأوسمة العسكرية وبه يكون الفرد قد توج كشافا.

حملنا أمتعتنا وركبنا المعدية إلي توتي وفي مكان قصي بعيد عن المنازل أقيم المعسكر وجلب الحطب إستعداداً لإشعال نار المعسكر في أثناء الليل. قبيل المغرب اجتمع ثلاثتنا التجانى وعبد الله وأنا ورأينا انه لا معنى أن نقضي الليل كله نفترش الأرض أو جلوسا حول النار وعمل دوريات حراسة حتى الصباح ؛ وقررنا أن نتسلل من المعسكر قبيل المغيب ونذهب لسينما كوليزيم بالخرطوم ثم نعود بعد انتهاء العرض ونكون قد أمضينا بذلك جزءا من الليل في أمر ممتع بالنسبة لنا. وهكذا بعد السينما ذهبنا ألي محل زكي إبراهيم حيث أكلنا "سندوتشات" وشربنا عصيرا وقفلنا راجعين إلي المعسكر وتسللنا في الظلام محاولين التستر به لنصل إلي مرقدنا نمضي به بقية الليل. غير أن دورية الحراسة كشفت أمرنا و أبلغت المستر جيف الذي حضر غاضبا وقام بإعادة تقسيم دوريات الحراسة ليكون لنا فيها النصيب الأكبر.

بالطبع اغتظنا كثيرا من هذا القرار الذي كان يعني أن نقضي معظم الليل على أرجلنا متجولين في إنحاء المعسكر بينما يغط الجميع في سبات عميق. ونحن اشد ما نكون حاجه إلي النوم بعد السهرة الممتعة. وقررنا أن يشاركنا بقية الزملاء في الاستيقاظ. وبدانا نتجول حاملين عصي الكشافة ومن نرى انه يغط في نوم عميق يكون نصيبه وكزة من العصا في الرأس أو الرجل ننسحب بعدها بسرعة ليستيقظ الضحية هلعا صائحا دون أن يدري ماذا حدث. وبعد قليل ساد الهرج في المعسكر وكشف الأمر ورفع إلي المستر جيف الذي أمر بتغيير الدوريات و أمر ثلاثتنا بالنوم حتى الصباح ليرى ما يراه في أمرنا.

عند ضحى يوم الجمعة حضر العميد لإجراء مراسم تنصيب الكشافة ؛ غير أن المستر جيف اطلعه علي ما حصل في الليلة السابقة من هروب من المعسكر في أوله وإثارة الفوضى فيما بعد.

جاء العميد وأخرج ثلاثتنا من الصف وأمرنا بحزم أمتعتنا ومغادرة توتي فورا لانه قرر طردنا من فرقة الكشافة.

بالرغم من اقتناعنا بأننا تعلمنا من تعاليم الكشافة ما كنا نريد أن نعرف وانه لم تعد لنا حاجة بالتندر فوت ؛ ألا أن الطريقة التي تم بها طردنا كانت ذات وقع أليم في نفوسنا.

اتخذ العميد قراره بحزم وحسم وفورية قصد منها أن يلقننا درسا قاسيا أمام الجميع بالرغم من أن ثلاثتنا كنا من احب الطلبة لديه ؛ وقد اظهر ذلك في عدة مناسبات ؛ منها انه استدعانا ومعنا زميلان آخران في أوائل السنة الدراسية بالفصل الرابع وقال لنا إننا طلبة ممتازون وانه يرجو لنا مستقبلا باهرا وشجعنا أن نبدأ في الاستعداد لامتحان الشهادة منذ ذلك الوقت متمنيا لنا التوفيق.

كانت تلك التجربة درسا لنا في الحزم والحسم وعدم خلط الأوراق وانه لاتزر وازرة وزر أخرى وهذا أمر مهم جدا في الحياة لكل من يتولى منصبا إداريا يمكن أن يتخذ فيه قرارات قد تكون مصيرية لبعض مرؤوسيه وقد تغير مجري حياة الكثير من الناس في المستقبل. وكانت أيضا درسا لنا في الالتزام وتحمل المسؤولية في أي أمر أو قرار نلتزم به مسبقا والا نحاول تكييف الأمر وتغييره حسب أهوائنا فيما قد يستجد من أمور.

والحمد لله أن تلك التجربة كانت في نطاق الكشافة ولم تكن في أمر مصيرى بالنسبة لنا.

في مدارج التحضر

في أثناء العام الدراسي ونحن بالسنة الأولى الثانوية جاءنا العميد يوسف بدري مصطحبا معه الأستاذ ضرار صالح ضرار وعرفنا بان الأستاذ ضرار سيجرى لنا اختبار ذكاء (I Q TEST) وكان ذلك عام ١٩٤٨.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي نعرف فيها أن الذكاء له مقاييس علمية يمكن بواسطتها تحديد مدى ذكاء الإنسان.

اختار الأستاذ ضرار حوالي خمسة عشر طالبا لإجراء ذلك الاختبار ؛ وعلى ما اذكر إن الاختبار اشترط أن يكون الممتحن لديه شهادة ميلاد أصلية والاتكون سنه محددة بشهادة تسنين ؛ أجرى الاختبار الذي كان غريبا علينا نسبة لتنوع الأسئلة وتعدد مجالاتها.

بعد حوالي أسبوعين حضر الأستاذ ضرار ليطلع العميد على النتيجة ؛ ولما سألناه قال أن الطالب عمر محمد الحسن(الزميل الصيدلي لاحقا) حصل على اكبر مجموع ؛ ولكن بعد اخذ فارق السن في الاعتبار يكون الطالب علي دفع الله شبيكة هو صاحب المجموع الأكبر . بالطبع سررت بهذه النتيجة أيما سرور ؛ غير أنها لم تبعث في نفسي أي نوع من الغرور أو الشعور بالتفوق لان جو الإخاء اللطيف الذي كنا نعيش فيه في الأحفاد الثانوية لم يكن ليدع مجالا لذلك .

كما ذكرت كانت تلك المرة الأولى التي نسمع فيها عن اختبار الذكاء ؛ ولم اسمع أو أقرا عنه بعد ذلك إلا في الجامعة الأمريكية ببيروت خلال دراسة علم النفس ؛ ولست أدرى أن كان أي من الأصدقاء أو الطلبة في المدارس الثانوية الأخرى قد سمع به ؛ ولكنها بالتاكيد كانت تجربة متقدمة جدا في ذلك الوقت وتشبه تماما ريادة الأحفاد في الدفع بأبنائها في مدارج التقدم والحضارة.

من تلك التجربة بدأنا ندرك أن العلوم والمعرفة متعددة ومتنوعة ولا تقتصر فقط على اللغات والعلوم والرياضيات والجغرافيا والتاريخ ولكنها بحار متسعة وعميقة ؛ علينا أن نعد أنفسنا أن أردنا ارتيادها .

ونحن في السنة الأولى الثانوية أيضا وعقب العطلة الصيفية ؛ سمعنا بان طلبة السنة الثانية يودون الاحتفال بأحد زملائهم وهو على ما اذكر الطالب صلاح الدين محمد علي وان المناسبة كانت شفاءه من مرض السحائي والذي كانت الوفيات تشكل نسبة كبيرة بين المصابين به إذ أن كثيرا من المضادات الحيوية لم تكن متوفرة في ذلك الوقت. وسمعنا أن الإدارة اقترحت عليهم إقامة حفل شاي لتلك المناسبة وأنها ستتولى ذلك معهم ؛ وكانت الفكرة في البداية هي تقديم هدية أو(وليمة) أو أي شي من هذا القبيل. وبالطبع كان اقتراح عمل (حفل شاي) في المدرسة فكرة جديدة على الجميع

ونوعا متقدما من طرق الاحتفال بالأشخاص أو الهيئات في ذلك الوقت. ولم تكن لي معرفة بشكل أو بطريقة الإعداد لمثل هذا الحفل ؛ أثار ذلك فضولي وبدأت أفكر في الكيفية التي يمكن أن اضطلع بها علي ذلك دون أن ادخل نفسي في حرج ؛ إذ أن الحفل كان مقتصرا على طلبة السنة الثانية والإدارة.

ورأيت ونحن نخرج من اليوم الدراسي عقب الحصة السادسة ؛ رأيت في ساحة المدرسة موائد خشبية وكراسي وأواني الزهور أعدت لتنسيق الحفل والذي كان موعده عصر ذلك اليوم.

ازداد فضولي وهداني تفكيري إلي الرجوع إلي المدرسة في حوالي الثالثة أو الثالثة والنصف قبل بدء الحفل وحضور المشاركين فيه لأرى شكل الإعداد والتحضير الذي تم.

وبالفعل نفذت ذلك ووقفت أتأمل الإعداد وطريقة رص الأواني والمأكولات والأزهار وكان ذلك من خلال البوابة الخارجية لسور المدرسة حرصا على ألا يراني أحد فيظن أني أتطفل على الحفل.

ولسوء حظي وقتئذ وأناُ أوشك على الرجوع جاء أحد طلبة السنة الثانية وانتهرني متسائلا عن سبب مجيئي وأنا من طلبة السنة الأولى ؟! فشعرت بحرج شديد وحاولت أن اشرح له سبب مجيئي وإنني لم اكن أريد الدخول ؛ غير انه ظل متحاملا علي فآثرت الذهاب والرجوع قبل أن يتطور الأمر بحضور آخرين.

تعلمت أمرين من هذا الحادث :

أولهما أن هناك طرقا أخرى للاحتفال بالأشخاص غير العزومة والذبائح أو تقديم هدية. وكان حفل الشاي من أول هذه الطرق.

الشـي الثاني هو أنني تعلمت والتزمت التزاما تاما منذ ذلك اليوم ألا اذهـب ألي أي حفل أو مناسبة ما لم تصلني دعوة سابقة إليها. وحتى يومنـا هـذا فأنـا لا أتنـازل عـن ذلك المبدأ أبدا بخلاف الممارسات التي المسها عند بعض النـاس في السـودان.والـتي لا يتحرج فيها بعضهم من اصطحاب آخريـن معـه تلبيـة لدعـوة موجهـة إليـه شـخصيا ويعتبرون ذلك نوعا من المجاملة .

(من الصدف الغريبة أن ذلك الطالب الذي كان له فضل تلقيني ذلك الـدرس قـد توفي بعدها بوقت وجيز من جراء أصابته بمرض الالتهاب السحائي ؛ رحمـه الله رحمـة واسعة.)

الأتكيت :

ذات مرة خلال العام الدراسي للسنة الثانية الثانوية دخل الفصـل المسـتر (بـيريرا) وكان مدرسًا للغة الإنجليزية. دخـل حـاملا حقيبـة وضعـها علـى المنضـدة وذكـر انـه سيعلمنا في ذلك اليوم طريقة الأكل بالشوكة والسكين على النمط الغربـي عـل ذلـك ينفعنا مستقبلا إذا سافرنا إلي الخارج ؛ وفتـح الحقيبـة وبـدا في إخـراج أدوات الطعـام واخذ ينظمها بالشكل الذي نراه على موائد الطعـام في مطعـم أو فنـدق علـى النسـق الغربي . واخذ يشرح لنا من أين نبدا وكيف نضع الفوطة على الصدر وكيـف نمسـك بالشوكة والسكين والملعقة.. وكيف يكون ترتيب ذلك . إلي آخر ما ينطـوي عليـه الاتيكيت الغربي في تناول الطعام ؛ ولحسن حظي فان الوالد كان قد اصطحبـني معـه في العام السابق في أثناء العطلة الصيفية إلي مصيـف أر كويـت حيـث اعتـاد أن يمضـي جزءا من الصيف ؛ وهناك تعلمت منه نظام الأكل بالشوكة والسكين حيث كان يتولي أمر الطعام في المصيف مصلحة المرطبات وهي الـتي تتـولاه أيضـا في الجـر انـد اوتيـل والحفلات الرسمية للحكومة الإنجليزية آنذاك .

وعليه فقد كان الأمر بالنسبة لي سهلا وكانت الحصة مفيدة في ترسيخ ما تعلمته من قبل وزيادة أشياء إضافية عليه.

المهم انه منذ السنة الثانية بثانوي الأحفاد كان يمكن لأي طالب منا حضور أي حفل أو الجلوس إلي مائدة الطعام على نسق النظام الغربي والتصرف بشي من الحضارة والاتيكيت لا يشعر فيه بأي حرج من جراء ممارسات غير سليمة. وامثال هذه الممارسات غير السليمة لمستها كثيرا في الحياة العملية في السودان. وحتى في بيروت في سنوات الدراسة بالجامعة هناك. كان الكثير من الزملاء العرب غير ملمين بتلك القواعد مثلما تعلمناها بالأحفاد ؛ وعند بداية رحلات العمل إلي أوربا وفي الموائد التي كنت ادعي إليها من قبل الشركات هناك كنت ألاحظ أن بعضهم ينظر من طرف خفي يريد أن يعرف أن كنت علي دراية بتناول الطعام حسب الاتيكيت. ولعلهم خبروا أن بعض الأفارقة والعرب وغير الأوربيين لا يلم بتلك القواعد.

حادثة طريفة حدثت في القاهرة حيث كان صديقنا شاذلي الريح السنهوري (السفير لاحقا) يعمل قنصلا في سفارة السودان بالقاهرة إذ حضر شخص من أحد أقاليم السودان النائية للعلاج بالقاهرة. أخذه هذا الصديق إلي مطعم هناك ؛ أظنه كان مطعم الشيمي المعروف لتناول الطعام ؛ اخذ ذلك الرجل السكين وعملها في صحن الأرز (الرز) وفي الطريق إلي فمه امسك صديقنا بيده وناوله الملعقة بدلا من السكين خوفا مما قد يصيبه لو ادخل السكين في فمه.

قد يظن البعض أن تلك أمور تافهة ونوع من التمسح بالفرنجة لا يليق بنا.ولهؤلاء أقول أن معرفة لغات وعادات الناس في مختلف أنحاء العالم تجعل سفرك إلي تلك البلاد متعة كبيرة وتسهل عليك التعامل معهم خصوصا أن كنت تسافر في مهمة تجارية أو علمية أو لامر لك أو لبلدك فيه مصلحة. كما أرجو ألا ننسي قول الله تعالى " أنا

خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا " . فهل هناك وسيلة أسرع للتعارف والتقارب من أن تكون ملما بلغة البلاد التي تزورها وعاداتها وتقاليدها ؟؟

وهل ننسي كيف تنشرح صدورنا عندما يخاطبنا أجنبي بقوله " السلام عليكم " مهما كانت ركاكة اللفظ ؟ ؛ ولعل الكثيرين منا يذكرون كيف يسرون عندما يجلس ضيف أجنبي من دولة غربية إلي موائدنا أو يجلس القرفصاء ويشاركنا الطعام مستعملا يده على الطريقة الغالبة عند أهل السودان.

ان التحضر والرقي هو أن تتعامل مع الناس بما يحببك إليهم ويقربك منهم بقدر الإمكان وان تحاول بقدر الإمكان تضييق الفوارق بينك وبينهم.

مثلا ؛ ليس من الضروري إذا دعيت إلي مائدة في أوربا أن تظهر امتعاضك لوجود لحم خنزير في بعض أصناف الطعام بل يمكنك أن تتجنبه دون إبداء رأى ودون أن يشعر بذلك مضيفك وان تكتفي بالأصناف التي لا يوجد فيها لحم الخنزير.

في زيارتي الأولى للشرق الأقصى حرصت وأنا في أول بلد نزلت فيها هناك أن أتعلم الأكل " بالسناراث " أي قطعتى الخشب اللتين يتناول بهما أهل تلك البلاد طعامهم ؛ ونتيجة لذلك كنت أرى الابتسام في وجوه الصينيين واليابانيين عندما أشاركهم الطعام بالطريقة نفسها بالرغم من المقولة المشهورة بأنك لا يمكن أن تقرا حقيقة شعور أهل تلك البلاد على وجوههم.

أهمية إتمام الدراسة

في أثنـاء دراسـتي بالجامعـة الأمريكيـة في بـيروت وفي إحـدى العطـلات الصيفيـة حضرت إلي السودان فوجدت والدي طريـح الفـراش في مستشـفي الخرطـوم القسـم الجنوبي. وقتها كان النشاط التجاري بمحلاته بـالخرطوم قـد تقلـص خاصـة بعـد أن تقدمت به السن وانفصل منه محمد علي زمراوي زوج شقيقتي آسيا. وبقـي بـالمحلات عمر عبد التام (الناقد الريـاضي ونقيـب الصحفيـين لاحقـاً) يباشـر الإشـراف علـي الأعمال المتعددة الأخرى مثل محطة البنزين بامدرمان وإيجـارات العقـارات بـالخرطوم وامدرمان. وحسابات المشروع الزراعي بالقيقر و .و . . الخ.

وقتها كان أخي يوسف طبيباً يمارس المهنة في عيادته بالخرطوم بحـري وأخـي احمـد مهندساً بوزارة الزراعة وعبد الرحمن لا يزال بالمدرسة الثانوية. عليه لم يكن من الأبنـاء من يعرف شيئا يذكر عن تجارة الوالـد. فرأيـت أن اقطـع الدراسـة وأبقـى بالسـودان

وادخل ميـدان الأعمـال والتجـارة نظـرا لتقـدم الوالـد في السـن خاصـة وان صحتـه أصبحت لا تساعده كثيرا على العمل مع تزايد مرض السكري لديه.

عرضت الفكرة علي الوالد وجاء الرد قاطعا وحاسما أن ذلك لن يكون أبدا وعلـي الاهتمام بدراستي ولا شيء غير ذلك.

بالطبع لم اقتنع بذلك. وهداني تفكيري أن استعين بالشيخ بابكر بدري لمـا اعـرف من مكانة له عند الوالد.

ذهبت إليه في منزله و أخبرته بما انوي شارحا له وضع الوالد الصحي والـذي كـان على علم به ورجوته أن يقوم بإقناع الوالد بما أرى. قال لي شيخ بابكر " حسنا سـأتكلم معه في هذا الأمر اليوم عند ذهابي لزيارته في المستشفي الساعة الرابعة بعد الظهر وعلي أن أكون هناك. وبالفعل التقينا هناك.

بادر الشيخ بابكر مخاطبا الوالد قائلا " يا دفع الله ؛ علي ده جاني وقال انه يريـد أن يترك الدراسة بالجامعة ويتفرغ لإدارة أعمالك ؛ وانك رفضـت ذلـك ". أمـن الوالـد علي صحة ذلك. اكمل الشيخ بابكر " وهاأنذا أساند قرارك أمامه و أنصحـك بـان لا تدعه يترك الدراسة مهما حصل "

فوجئت بذلك الموقف وكنت أظن أن الحديث سيكون علي غير ذلك

التفت إلي الشيخ بابكر ورأى الدهشة علي وجهي فقال لي " إنـت يـا علـي منتظـر إنى أنا أشجعك علي قطع تعليمك عشان بعدين لمـا تكـبر وتدخـل في معـترك الحيـاة وتندم علي انك لم تواصل حتى إتمام الجامعة تتذكر هذا الأمر وتقـول الله يلعنـه ذلـك الرجل الشايب كان السبب في هذا "

وهكذا لقنت درسا بليغا حفظته جيـدا وعملـت بـه وطبقتـه علـي أبنـائي وبنـاتي. ولست ادري كيف فات علي وأنا في غمرة التفكير العاطفي كيف فات علي أن انتبـه

إلى أن من أردت الاستعانة به رجل نذر عمره وكل ما يملك لرسالة التعليم بشكل قل أن يحدث مثله في العالم. وكان ذلك درسا آخر تعلمته من " أبو الأحفاد " وشيخها الجليل.

منذ ذلك اليوم شددت العزم علي إتمام دراسة الصيدلة تحقيقا لرغبتهما ووصولا إلى الهدف الذي من اجله سافرت إلى بيروت. والحمد لله الذي وفقني أن تخرجت بامتياز. وعدت إلي السودان وكنت أول صيدلي يفتتح صيدلية في مدينة الخرطوم بحري وبعدها صرت أول صيدلي سوداني يقتحم مجال استيراد وتوزيع الدواء والذي كان حكرا علي الأجانب والمتجنسين بالجنسية السودانية.

في هذا المجال وجدت مقاومة شديدة من معظم شركات الأدوية الأخرى إشفاقا منهم على مستقبل أعمالهم أن بدأ السودانيون في ممارسة هذا النوع من الأعمال. وهو ما حدث بالفعل إذ أن اكثر من ٩٠٪ من شركات استيراد الدواء اليوم لصيادلة سودانيين.

واذكر انه في عام ١٩٦٢ حضرت إلى الخرطوم لجنة تتكون من عميد كلية الصيدلة بالجامعة الأمريكية في بيروت وعميد كلية الصيدلة من جامعة لندن وممثل لمعامل welcome بإنجلترا. بدعوة من جامعة الخرطوم لعمل دراسة جدوى لإنشاء كلية صيدلة بالجامعة.

عقب إتمام الدراسة وتأييد فكرة قيام الكلية دعاني الأستاذ نصر الحاج علي مدير جامعة الخرطوم آنذاك لحفل عشاء بمنزله أقامه لأعضاء اللجنة. واذكر أن الدكتور إبراهيم قاسم مخير كان ضمن المدعوين.

في ذلك الحفل نقل إلي الأستاذ نصر انهم بناءا علي توصية أستاذي البر وفسر أمين حداد عضو اللجنة وعميد كلية الصيدلة بالجامعة الأمريكية يعرضون علي الانضمام

للجامعة وابتعاثي إلى الولايات المتحدة لنيل شهادة الدكتوراه لاكون أحد أوائل مؤسسي كلية الصيدلة في جامعة الخرطوم.

غير أنني اعتذرت وشرحت لأستاذي بر وفسر حداد والأستاذ نصر الحاج علي أنني أخوض وقتها معركة كبيرة في توطيد بقاء شركتنا في مجال استيراد الدواء وإلا قفل ذلك المجال في وجه السودانيين وربما لاجل طويل.

واحمد الله أن وفقني بان أصبحت شركتنا في سنوات قليلة من كبري شركات استيراد وتوزيع الدواء في السودان رغم العقبات والعراقيل الكثيرة التي عملت للحيلولة دون ذلك.

أسال الله أن أكون بذلك قد حققت ما أراد لي الوالد وشيخي الجليل بابكر بدري من إصرارهما علي لاتمام الدراسة واحمده تعالى اني أجد الكثير من الرضا في اختياري أصلا لدراسة الصيدلة.

رحلات وأسفار

الشيخ بابكر بدري رحمه الله جاب أقاليم السودان مجاهدا ومعلما ومفتشا للتعليم وتاجرا حتى وصل إلي القطر المصري وقضى به سنوات الأسر في حرب المهدية.

ولا شك انه لمس الفوائد الجمة التي ينالها الإنسان من هذه الأسفار. وقد درجت الأحفاد على تنظيم الرحلات لطلبتها منذ أمد بعيد وحتى اليوم ؛ ففي جامعة الأحفاد تقوم الطالبات في معظم الكليات بتمضية أسابيع في مختلف أقاليم السودان ؛ بغرض التعرف علي الحياة في شتى أنحاء البلد والعيش مع أهلها ردحا من الزمن تتلمس الطالبات من خلاله الوسائل التي يمكن أن يعملن بها على تقدم تلك المجتمعات والارتفاع بمستواها في مختلف نواحي الحياة.

بالنسبة لي فان هذا اللون من ألوان المعرفة توفر لي بالأحفاد في وقت مبكر جدا قبل

كتاب "سبل كسب العيش في السودان" وقبل الممارسة الفعلية للرحلات؛ بل أقول أن التعرف على أقاليم السودان قد بدأ عندى منذ الروضة دون أن اذهب إلى تلك الأقاليم

كان ذلك من خلال الزملاء التلاميذ في مختلف مراحل الدراسة القادمين من الأقاليم. على سبيل المثال كنت وأنا في الروضة اعرف الكثير عن بلدة " قلي " في النيل الأبيض من خلال ما كان يحكيه الزميل عبد الرحمن يعقوب الحلو والذي كان يقضي العطلة الصيفية فيها حيث كان والده يملك مزارع بتلك البلدة. ومرة أخرى تعرفت على "قلي" وأنا في المرحلة الثانوية بالأحفاد من خلال ما كان يرويه أيضا الصديق الزميل يوسف محمد بشارة والذي جاء إلي الأحفاد بعد فصله من حنتوب الثانوية وهو أيضا من أبناء تلك البلدة.

وفي المدرسة الأولية جاءنا عمر إبراهيم بدري قادما من بلدته " منقلا " من جنوب السودان. وكانت تلك بداية أول معرفة لي بجنوب السودان ؛ كنت أحث الزميل عمر على الحديث عن " منقلا " واصفا الغابات وأشجار الفواكه التي تتساقط على الأرض دون أن تجد من يعمل على جنيها والاستفادة منها. وأيضا عن الجنوبيين وحياتهم والتي بدت لي مختلفة إلي حد كبير عما كنت اسمع عن حياة القبائل الأخرى بالسودان.

وهكذا كانت المعلومات تتواتر علي في الأحفاد مع كل زميل قادم من الأقاليم. من علي مصطفى أبو حجل من الربا طاب ومن إدريس وعمر محمد نور الدائم من " نعيمة " بالنيل الأبيض وعمر محمد الحسن من كريمة والبر كل. والصديق الشاعر حسين محمد سعيد بازرعة والذي كان يحضر معه عقب العطلة الصيفية صورا فوتوغرافية لمختلف أنحاء بورسودان وجبال البحر الأحمر ولقبائل الهد ندوة والبجة

بشعرهم الغزير الذي يتوج رؤوسهم والذين عرفوا باسم " fuzy wuzy " من اجله وما زلت احتفظ ببعض الصور التي اهدانيها في تلك الأيام وغيرهم كثيرون ممن لا يتسع المجال لذكرهم وممن لا أزال احفظ لهم في نفسي فضل التعرف على شتى المناطق بالسودان. إلا إن المعرفة المباشرة جاءت في المرحلة الثانوية. وكانت الرحلة التي قمنا بها إلي كردفان والى مدينة " الأ بيض " على الأخص أولى تلك التجارب التي تعلمت منها الكثير. وكانت الرحلة تحت إشراف الأستاذ احمد المغربي والأستاذ حسن السحتري.

في تلك الرحلة وفي الطريق إلي الأ بيض تعرفنا على الرهد وأم روابة بعد أن كنا نراهما على الخريطة فقط.

في الأبيض لعل سوق الصمغ كان أهم المعالم التي زرناها فكثيرا ما كنا نقرا أن السودان ينتج ما يزيد علي ٨٠٪ من الصمغ العربي في العالم وان المصدر الرئيس له هو مديرية كردفان.

زرنا أيضا سوقا شعبية ويسمى سوق أبو جهل أو "أبْجهل" كما ينطقها أهل كردفان؛ وحدائق ألبان جديد والتي صحبنا فيها المرحوم الشاعر محمد عوض الكريم القرشي وقد كانت بالنسبة لي المرة الأولي التي اجلس واستمع فيها إلي أحد أساطين الشعر الغنائي في السودان. حيث أطربنا بالعديد من الأغاني التي كنا نستمع أليها من الفنان عثمان الشفيع وغيره.

ولعل اطرف الزيارات التي قمنا بها هناك كانت زيارتنا للمحكمة القروية إذ حضرنا جلسة لمحاكمة شخص كان قد سرق ثورا وذهب به إلي الخلاء؛ وتتبعه البوليس مع قصاص الأثر حتى وجدوه ومعه آخر وقد ذبحوا الثور وأوقدوا نارا وجلسوا يأكلون من لحمه. وكان السؤال المحير بالنسبة لنا " هل يعقل أن يكون ذلك

هو الغرض من سرقة الثور " ؟ إلا أن القاضي أراحنا من عناء التخمين وسأله مباشرة " أنت سرقت الثور؟ " أجاب بنعم ؛ ثم عاد وسأله " طيب سرقته ليه ؟ " فأجاب بكل بساطة " سرقته شان ناكلو . ناس تسرق تور ليه ؟!! "

كان ذلك الرد ابعد ما يكون عن كل ما وصل إليه خيالنا. فقد كنا حتى ذلك التاريخ نظن أن من يسرق ثورا غالبا ما يكون الغرض هو بيعه للاستفادة بثمنه أو استعماله في أغراض أخري مثل الساقية أو حرث الأرض أو ما شابه ذلك. أما أن يسرق إنسان ثورا ليأكله فقد كانت تلك ابعد من أن يرتادها خيالنا نحن أبناء العاصمة. ثم طلب القاضي من المتهم أن يشرح كيف تمت العملية ؛ فسرد الرجل قصته إلي أن قال " أنا كمان قلت ننادي اساغة اخوي تأكل معاي ".هل يا ترى كان يعتزم أن يأكل الثور وحده ؟!! ثم فكر أن يستعين بأخيه اساغة أو يبره بالمشاركة ؟!

عاد القاضي وكرر له " يعني أنت معترف بأنك سرقت الثور ؟! " فأجاب بالإيجاب فقال له القاضي " طيب شيل شيلتك ٣ سنين سجن " فرد المتهم "أنا شيلتي نشيلو لكن اللهم (اللحم) وينو ؟! " قال القاضي " لحم شنو ؟ ما في لحم " فرد المتهم" كيف ما في لهم (لحم) ما عساكر وناس كلوا شالوا " واقتيد السارق إلي الخارج.

ومنذ ذلك اليوم صرنا وصديقي التجاني فضل الله وبقية أفراد شلتنا نتخاطب بكلمة " اساغة اخوي " كلما طلب أحدنا أو أراد أن يبر الآخر بالمشاركة في شي جميل. وحتى الخطابات التي كنا نتبادلها في الجامعة كانت كثيرا ما تبدأ ب " عزيزي اساغة " .

كانت تلك الرحلة إلي كردفان إطلالة تعلمنا منها الكثير وفتحت آفاقنا إلي أن هذا السودان القطر القارة به اختلاف كبير جدا في العادات والتقاليد والممارسات

الاجتماعية لمختلف القبائل والجهات. كما إنني أيقنت أن الجهل المطبــق علــى معظــم مناطق السودان لابد له من جهاد مخلص طويل وحــرب لاهــوادة فيــها إن قــدر لــه أن يزول.

السفر إلى مصر

في بداية أبريل عام ١٩٥١ م نظمت الأحفاد الثانوية رحلة إلي مصر وكنت من المحظوظين بالمشاركة فيها.

اشرف على برنامجها في مصر الأستاذ سعد الدين التاودى وكان العم عبد الكريم بدري هو المسؤول الإداري عنها والذي رافقنا طوال الرحلة.

طالما وددت أن اكتب كتابا عن تلك الرحلة التي تعلمت منها الكثير وتعرفت فيها على مصر لدرجة أنني كنت ومازلت عبر السنين أتباهى بمعلوماتي عن مصر أمام الأصدقاء والمعارف من المصريين واسرد لهم أشياء يجهلونها عن بلدهم غيران تحديات الدراسة والعمل لم تدع لي مجالا لتنفيذ ذلك.والحق يقال أن التنظيم والتوفيق الذي لازم تلك الرحلة جعل كل يوم فيها لا ينسى بالنسبة لكل من شارك فيها.

كانت الرحلة بالقطار والباخرة ذهابا وإيابا ؛ ولا بد لي مـن الاختصـار الشـديد في سرد الأحداث وإلا لوجدت أنني اكتب كتابا كاملا واخرج بذلك عـن موضـوع هـذا الكتاب. لما في تلك الرحلة من أحداث شائقة وممتعة.

حجزت لنا عربة درجة رابعة بقطار حلفا. وفي منتصـف الطريـق مـن الخرطـوم إلي حلفا اكتشفنا بان الفنان عثمان حسين يصحبه بعض العازفين كانوا معنا في القطـار في طريقهم لإحياء حفلات في حلفا.

في الأحفـاد الثانويـة شـأن الثانويـات الأخـرى كـانت هنـاك مجموعـات معروفـة للمعجبين بالفنانين. أشهرهم كانت مجموعات حسـن عطيـة وعثمـان الشـفيع واحمـد المصطفى. وكانت هناك مجموعة صغيرة العدد من معجبي الفنان عثمـان حسـين علـى راس هذه المجموعة كان الزميل محمود عثمـان علي كيلـه (الـذي استشـهد في بيـت الضيافة عام ١٩٧١). وما إن تسرب خبر وجود عثمان حسين معنـا في نفـس القطـار حتى نشط محمود كيله وآخرون لإجراء الاتصال بـه ولم نلبـث إلا إن وجدنـا عثمـان حسين حاملا عوده بيننا يصحبه الموسيقار عبد الفتاح الله جابو. وكانت بقية الرحلة إلي حلفا شيئا عظيما من الإمتاع الفني يفوق الوصف ؛ تعرفنا عن قـرب علـي مقـدرات ذلك الفنان العظيم وسبحنا في بحور الشعر الرومانسـي ابتـداءا مـن " اللقـاء الأول " وحملنا الشعراء قرشي محمد حسـن وصـلاح احمـد محمـد صـالح " السـفير لاحقـا " وطوفوا بنا في عوالم الحب والرقة وكانت أغنية " مات الهوى " سيدة الموقف. أبكتنـا و أجرت الدمع من مآقينا طربا وتفاعلا مع الكلمات واللحن والأداء.

بين حلفا والشلال استغرقت الرحلة بالباخرة النيلية يومين كانا من أمتع ما يكون ؛ لأول مرة عرفت أن متعة السفر فوق الماء على بحر هادي الأمواج مثل النيل لا تدانيـها متعة أخرى. الباخرة تمضي في هدوء لا نمـل فيـه متعـة النظـر إلي المـاء وإلي الشـاطئين وأشجار النخيل الباسقة وقرى النوبة التي ترقد في دعة تحت كل هذا والخواطـر تـتري

عن تلك الحضارات التي عاشتها تلك المنطقة والتي كانت بلا شك من اعظم حضارات العالم.

أما عن آثار تلك الحضارات والتي كانت تتناثر حول تلك المنطقة محدثة عن تاريخ لممالك بهرت الدنيا مثل معبد أبو سمبل وغيره، فقد كنت تجدها طوال تلك الرحلة. غير أن قصر انس الوجود والذي كان يقبع في منتصف النيل وقد غطى الماء نصفه واطل النصف الأعلى شامخا يجلس فوق عرش النيل العظيم ؛ ذلك القصر كان أروع ما شهدت في حياتي رغم أسفاري الكثيرة ومشاهداتي حول العالم. وحتى اليوم لا أزال مندهشا لذلك التقدم في العمران والهندسة والتي أمكن بها أن يبقى ذلك القصر العظيم في وسط الماء آلاف السنين. وبالطبع استعدنا قصيدة شوقي عن قصر انس الوجود ورددنا معه :

قف بتلك القصور في اليم غرقى	ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضا	سابحات به و أبدين بضا
مشرفات على الزوال وكانت	مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت	وشباب الفنون ما زال غضا
رب نقش كأنما نفض الصانع	منه اليدين بالأمس نفضا
ودهان كلامع الزيت مرت	اعصر بالسراج والزيت وضا
وخطوط كأنها هدب ريم	حسنت صنعة وطولا وعرضا

وفي أسوان أخذونا لزيارة موقع في مكان مرتفع على شاطئي النيل وقالوا لنا أن ذلك المكان سيكون موقع السد العالي.

كانت تلك هي المرة الأولى التي نسمع فيها بمشروع السد العالي. وبهذا يكون هذا المشروع قد سبق إعداده وعلى وشك التنفيذ قبل ثورة يوليو ١٩٥٢. الشيء الذي تجهله

أجيال اليوم. والسد العالي حسب ما يظن الكثير من المصريين هو من مشروعات ثورة يوليو لأنها هي التي قامت بتنفيذه فعلا.

أورد هذا بقصد القول أننا في تلك الرحلة تعلمنا أن التخطيط الحضاري في شتى أنحاء مصر كان متقدما جدا بدليل أن مشروع السد العالي كان جاهزا ومحدد الموقع في ذلك الوقت الشيء الذي لا تعرفه الأجيال الجديدة والتي قد تكون بداية معلوماتها عن السد العالي هو أغنية عبد الحليم حافظ.

قلنا حنبني وادي إحنا بنينا السد العالي

في السنوات التي تلت ذلك عايشنا كفاح الشعب والحكومة المصرية في سبيل تنفيذ ذلك المشروع العظيم. ونحن في الجامعة كنا نتتبع محاولات الحكومة المصرية في إيجاد تمويل لمشروع السد العالي ؛ وما تلي ذلك من تأميم لقناة السويس ثم العدوان الثلاثي ؛ وخروج المظاهرات في كافة أنحاء الوطن العربي دعما لمصر.

الناظر للنهضة الصناعية والاقتصادية العظيمة التي تتميز بها مصر لابد أن يدرك اثر قيام السد العالي في تلك النهضة. فإذا نظرنا فقط للطاقة الكهربائية التي وفرها السد العالي لمصر أدركنا عظمة ذلك الإنجاز وانه فعلا يستحق كل ما بذل من اجل تحقيقه. لدرجة أن مصر قد دخلت ألان في تعاقدات خارجية لتصدير الطاقة الكهربائية إلي الخارج.

اكتب هذا وأنا أتحسر علي موقف الإمداد الكهربائي في السودان والذي ظل يتعثر ويتدهور منذ اكثر من عشرين عاما ؛ الشيء الذي أجبرنا في الشركة عام ١٩٧٦ أن نلغي الفترة المسائية في العمل نظرا لمداومة الانقطاع الكهربائي المبرمج وغير المبرمج. وحتى اليوم فإننا نعمل لفترة نهارية فقط. وهذا ينطبق الآن علي كل الأعمال والأسواق في الخرطوم حيث يلفها الظلام الدامس بعد مغيب الشمس لدرجة يبدو

فيها السوق الإفرنجي والذي كان اجمل الأسواق وأبهجها يبـدو مقفـرا موحشـا قـد لا يأمن المرء التجول داخله بعد غروب الشمس.

كان الأولى بالحكومات المتعاقبة في السـودان أن تنظـر إلي إنجاز السـد العـالي بعـين الاقتداء وان تكرس جهودها في تنفيذ المشـروعات الكهرومائيـة والـتي لا تـزال حـبرا علي ورق عبر السنين الطوال. وماذا كان يضير الحكومة السودانية حـين وقعـت علـي اتفاقية مياه النيل أن تشترط إمداد السودان بجزء من كهرباء السد العالي ؟؟.

أمضينا يومين في الأقصر مهد الحضارة الفرعونية. ورأينا ما كان يدرسه لنا الأسـتاذ (احمد عبد اللطيف محسن) في الأحفاد رأي العين من معبد الكرنك وطريـق الكبـاش أو الخراف و . . و . . مما يمتلئ به الوادي في تلك المنطقة من آثار لحضارات قل أن يجود الزمان بمثلها .

بجانب التعرف الميداني ـ كما يقولون ـ علي تـاريخ الحضـارة الفرعونيـة ؛ كـانت مدينة الأقصر أول معرفة لي بالمسرح الغنائي. فقد تصادف أن كانت هناك حفلة غنائيـة بالمسرح يحييها الفنان (كارم محمود) وحجـزت لنـا أمـاكن في تلـك الحفلـة وبـالطبع كانت المرة الأولى التي نشاهد فيها الفنان كارم محمود وكان يغني أغنية جديدة في ذلـك الوقت هي أغنية " علي شط بحر الهوى " وخرجنا من المسرح والكل يغني :

علـي شـــط بحـــر الـــهوى   رســـــيت مـــــراكبنا

والشـــوق جمعـــنا ســـوى   إحـــــنا وحبايبـــــنا

وكانت تلك بداية إعجابي الحقيقي بالفنان كارم محمود وكنت أشاهده مـن قبـل في بعض الأفلام المصرية بدور السينما بامدرمان.

من الأماكن التي زرناها في الطريق من الأقصر إلي القاهرة كانت مدينة (كوم أمبـو) وتعرفنا فيها على صناعة السكر.

ومن دون الدخول في تفاصيل اكثر فقد تعلمنا في تلك الرحلة وشاهدنا مصانع لصناعات عدة ؛ مثل مصانع الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى وكفر الدوار. ما كان يمكن أن تتاح لنا في حياتنا وما أظنها أتيحت لغيرنا في ذلك الزمن الوجيز.

زرنا مصانع السماد وتكرير البترول في السويس ومجموعة شركات عبود باشا وكانت مكاتبها في عمارته ايموبليا ـ تقاطع شارع قصر النيل مع شارع شريف باشا. والتي كان يملكها عبود باشا وكانت أعلى عمارة في مصر وتتكون من ١٣ طابقا. وزرنا مصنع يس للزجاج و. . و. . ؛ باختصار نكاد نكون قد تعرفنا على معظم الصناعات في مصر في ذلك الوقت. الشيء الذي أضاف إلينا الكثير والكثير جدا.

أما الآثار والمتاحف في القاهرة والإسكندرية فلم تقتصر علي الأهرام وأبو الهول ومتحف الانتكخانة والآثار الرومانية بالإسكندرية. بل لم يكن هناك متحف إلا وقد ادرج في برنامج الزيارة لدرجة أننا كنا نتراهن إن كان هناك متحف لم نسمع به. وكنا دائما نفاجأ بالجديد ؛ مثل متحف البريد ومتحف المطافئ و. . و. . وما إلي ذلك.

لم تقتصر الزيارات على المتاحف والمعالم الأثرية ؛ كانت هناك المسارح والسينمات. فقد شاهدنا مسرحية بمسرح الازبكية لفرقة يوسف وهبي وقد أسعدنا أن نلتقي بيوسف بك وهبي عقب المسرحية وراء الكواليس ورحب بنا وصافحنا فردا فردا ؛ ذلك الممثل العظيم الذي طالما شاهدناه في أفلامه الرهيبة مثل " سفير جهنم " وغيره.

زرنا أيضا الحدائق مثل حديقة الحيوان في الجيزة وحديقة الأسماك ودائما كانت المقارنات صعبة بما يماثل تلك الأماكن في السودان. حتى دور السينما ؛ واذكر جيدا أننا حين دخلنا سينما مترو بشارع سليمان باشا ذهلنا من الفخامة الملوكية لتلك الدار. فالكراسي مكسوة بالمخمل الأحمر والستائر المخملية المذهبة التي تتدلى على جدران " البنوارات " الفخمة المعدة لعلية القوم. وكادت أرجلنا تغوص في السجاد والموكيت

الذي يكسو الممرات ؛ كانت شيئا باذخ الفخامة تصعب مقارنته بأي مكان في السودان.

رويت لأحد أصدقائي من المصريين أنني في إحدى زياراتي للعاصمة الفرنسية باريس ؛ تصادف أن كنت راجعا إلي الفندق بعد منتصف الليل عقب خروجي من أحد مسارح باريس الشهيرة. وفي أحد الشوارع وجدت عربة مجهزة بأحدث الآليات تقوم بغسل الشوارع والأرصفة بالماء والمنظفات. قلت له أنني تذكرت أنني شهدت هذا المنظر في أبريل ١٩٥١ في القاهرة وذلك عند زيارتنا لها ونحن طلبة في الأحفاد الثانوية. بالطبع أبدى صديقي دهشته لدرجة عدم التصديق ؛ واجد له العذر في ذلك لأنني لو لم أشاهد ذلك المنظر مع من كان معي من الزملاء في القاهرة في ذلك الوقت لشككت في صحة المقولة.

تلك كانت إحدى سمات التقدم الحضاري في عهد مصر الملكية قبل يوليو عام ١٩٥٢. وكان الأجدر أن تتطور هذه السمات ويتواصل التقدم في تلك المجالات. غير أن رياح الاشتراكية التي هبت مع قيام ثورة يوليو كان لديها أولويات أخرى لم تكن تلك الأشياء مضمنة في قائمتها.

إلى جانب هذا وذلك تصادف وجودنا في القاهرة مع موعد مولد السيدة زينب وكان قريبا من مكان إقامتنا في بيت السودان بالمبتديان. واذكر أن العم عبد الكريم بدري كان دائم الحرص على ارتياد المولد في المساء. أيضا زرنا الشيخ احمد البدوي بطنطا. طبعا بجانب زيارتنا للحسين والأزهر بالقاهرة. وحتى الأسواق الشهيرة مثل الموسكي بالعتبة وخان الخليلي وسوق الجمال بامبابة كانت ضمن ما شاهدنا. كما تناولنا وجبات في مطاعم أبو شقرة والحاتي بالقاهرة ومطعم مصطفى مشهور بالإسكندرية عند زيارتنا لها. وبالطبع تصعب المقارنة بين تلك المطاعم وما كان يوجد بالسودان آنذاك من مطاعم.

زرنا جامعة القاهرة وحضرنا احتفال اليوم الرياضي لكلية القصر العيني وفازت حليمة أبو زيد في سباق الجري للطالبات ؛ الذي جعلني أتذكر الاسم حتى اليوم إنها كانت المرة الأولى التي نشاهد فيها بعض البنات يشاركن في المسابقات الرياضية.

ولعل زيارتنا لدار "أخبار اليوم" كانت من أهم الزيارات. من خلالها كانت إطلالتنا الأولى على عالم الصحافة والطباعة لنعرف كيف تطبع الصحف وكيف تنشر. كانت تلك الزيارة دون شك ذات قيمة كبيرة خاصة إنها تمت لدار مثل دار أخبار اليوم.

في مكاتب صحيفة أخبار اليوم وبعمارة الدار بميدان الإسماعيلية " ميدان التحرير لاحقا " التقى بنا عملاق الصحافة المصرية الأستاذ (مصطفى أمين) الذي أسس تلك الدار مع توأمه الأستاذ (علي أمين) وقد رحب بنا وحدثنا عن الصحافة وعن أخبار اليوم. وكانت تلك الزيارة بداية إعجابي بذلك الصحفي الفذ والذي أكاد أكون قد قرأت كل ما نشر له من كتب مع إدماني قراءة عمود " فكرة " بعد أن تولى كتابته عقب وفاة علي أمين.

كما ذكرت سابقا فانه لابد لي من الاختصار حيث أن ذكريات تلك الرحلة قد تسع مجلدات تحكي احلي أيام الدراسة.

في نهاية الرحلة ولم يتبق سوى أيام قليلة على العودة إلي السودان حدد موعد زفاف الملك فاروق ونار يمان في السادس من مايو ١٩٥١. نشطت الاتصالات بالمسؤولين لتمديد الرحلة حتى تتاح لنا فرصة حضور احتفالات الزفاف الملكي. وكانت فرحتنا عظيمة حين جاء الرد ليس بالموافقة فقط ولكن بدعوتنا لحضور عدد من الاحتفالات في تلك المناسبة.

أولها كان أن سمح لنا بالوقوف داخل ساحة قصر عابدين حيث أمكننا مشاهدة موكب العروس عن قرب في أثناء دخولها إلي القصر. وأيضا في تلك الأيام سمح لنا

بدخول البرلمان وحضور جلسة من جلساته حيث رأينا لأول مرة زعماء السياسة المصريين أمثال ـ مصطفي النحاس وفؤاد سراج الدين واستمعنا إلي خطبائهم والمداولات البرلمانية وكانت تجربة جديدة وفريدة بالنسبة لنا جميعا.

ولبينا دعوة لحضور حفل أقامته الجمعية الملكية الزراعية في تلك المناسبة وكان ذلك في مقرها قرب كوبري قصر النيل. وكان ضمن الحضور في ذلك الحفل السيد/ إسماعيل الأزهري والدكتور / مكي شبيكة وخطب إسماعيل الأزهري في ذلك الاحتفال معددا اوجه الحضارة والتقدم في مصر. وكان أيامها رئيسا لحزب الأشقاء بالسودان . ثم كانت هناك دعوة بقصر حدائق القبة وفيها التقينا بكثير من الزعماء المصريين والتقطت لنا صورا مع بعضهم كانت إحداها مع فؤاد سراج الدين وزير الداخلية آنذاك وأخرى مع محمد صلاح الدين وزير الخارجية وقتها. أرجو أن أتمكن من نشر تلك الصور ضمن هذا الكتاب.

وكان احتفال نادي الضباط بالزفاف الملكي بحضور حيدر باشا وزير الحربية قمة في الفن حيث غنى فريد الأطرش ورقصت سامية جمال وصدحت سيدة الغناء العربي السيدة أم كلثوم . وكان شئ يفوق الوصف والخيال.

لن أستطيع حصر ما تعلمته في تلك الرحلة ولا يمكنني أن اشرح الآفاق النى فتحت أمامي انا وزملائي في النواحي التاريخية والصناعية والعلمية والسياسية والفنية . كانت الرحلة من اعظم الأشياء التي حدثت في حياتي في تلك السن المبكرة. وقفت فيها علي معارف جمة عن الحياة خارج السودان وعن مصر بالذات والتي لم تنقطع زياراتي لها منذ تلك الرحلة وحتى اليوم ولا زلت أزورها علي الأقل مرة.كل عام

لا اشك أن تلك الرحلة قد كان لها اثر في تخطيط بعض مسارات حياتي لاحقا وحياة بعض زملائي. كيف لا وأنا دون السابعة عشرة من العمر تتاح لي فرصة الوقوف علي تاريخ وادي النيل واري والمس اشهر آثار الفراعنة أتعرف على صناعات

النسيج والسكر بعد أن كنا لا نعرف عن النسيج إلا أسماء ما نلبس منه ولا نعرف عن السكر إلا مذاقه الحلو. هذا إلى جانب معرفة قمم الفن المصرية في التمثيل والغناء ومصافحتهم والتحدث معهم بعد أن كنت أراهم فقط في أفلام السينما والمجلات المصرية. في تلك السن المبكرة عرفت عالم الصحافة والسياسة ودخلت لأول مرة في حياتي برلمانا فيه حكومة ومعارضة وشهدت وسمعت المساجلات بينهما ولم اكن اعرف قبلها حقيقة البرلمان وأهميته في الحياة السياسية.

هذا بالإضافة لمشاريع المستقبل مثل مشروع السد العالي. وكان حقا شيئا عظيما أن أرى واعبر قناة السويس والتي كانت تعتبر من أهم المشاريع العالمية في القرن العشرين.أنا مدين للأحفاد بكل ذلك.

الوطن - المواطنة - الوطنية

بلدنا بلدنا امدرمان

الشيخ بابكر بدري

بلــدنا بلـدنا امـــدرمان

اكبر بلدة فــي الســودان

سهل العيشــة للسـكان

فيها الحرف أشكال وألوان

كهــربا نورهــا بلا دخان

ســبيل الموية للعطــشان

والمستشـــــــفي للعيان

والترمــاي للعجـــلان

ثم الكوبـري غني وفقران

بـها حـكامنا قضاة وأمان

في روضه الأحفاد كان أول درس تعلمناه عن الوطن هو نشيد عن أمدرمــان صــاغ كلماته الشيخ بابكر بدرى . بلدنا بلدنا امدرمان احسن بلده في السودان من هنا تعلمنــا أن امدرمان التي ولدت فيها و أتعلم في مدارسها في ذلك الوقت هي إحدى مدن كثيره موجود في وطننا الســودان . كـان ذلـك هـو الـدرس الأول وكـان سـني آنـذاك أربـع سنوات .

بعد ذلك يسترســل النشـيد في ذكـر محاسـن امدرمـان ولمـاذا هـي احسـن بلـده في السودان ، غارساً في عقولنا أولى بـذور حـب الوطـن ممثـلاً في هـذه البلـدة ، وواصفـاً مزاياها ومافيها من عمران وحضاره ومواصلات واشياء كنا نمر بها في حياتنــا اليوميـة ولكن لا نستشعر فائدتـها وإنـها تميزنا نحن أبناء امدرمان عن الكثير مــن أبنـاء بلـدان السودان الأخرى .

وهكذا نما حــب امدرمـان في قلوبنـا ذلـك الحـب الـذي رآه النـاس رأى العـين في التبرعـات والدمـوع الـتي انـهمرت مـن أبنـاء امدرمـان وابنـاء الأحفـاد علـى وجـه

الخصوص يوم وضع حجر الأساس لمنتدى أبناء امدرمان والذى كان ابناء الاحفاد هم اصحاب الفكرة في إنشائه ولهم اليد الطولي في البذل والعمل لاقامة هذا الصرح .

وهكذا تلقينا أول درس في حب الوطن ونحن في روضة الأحفاد أطفالا .

في المدرسة الأولية بالأحفاد انضم ألينا التلميذ عمر إبراهيم بدرى قادماً من منقلا في جنوب السودان . شيئان أثارا فضولي نحوه .

الأول انه رغم صغر سنه كان طويل القامة جداً خاصة بالنسبة لي بالرغم مع تقاربنا في السن . الشيء الثاني انه بالرغم من انه من عائلة بدرى فقد كان لونه يميل للسواد وشعره أجعد . الشيء الذي لا تجده في هذه العائلة على الأقل في ذلك الزمن . وبسرعة صاروخية اتخذته صديقاً . ويوماً بعد يوم تعلمت منه وعنه الكثير .

أولاً : تعلمت أن هناك جزءاً من السودان اسمه الجنوب وفيه بلدة تسمى منقلا ولد فيها عمر . وان والدته من الجنوب حيث كان يعمل والده إداريا في ذلك الجزء من السودان . ومن هنا عرفت سر اللون وجعد الشعر وطول القامة . حدثني عمر كثيراً عن الجنوب .

حدثني عن أشجار الفاكهة التي تتساقط ثمارها في الطرقات . وحدثني عن الصيد بالرماح حتى صيد السمك كان من وسائله الرماح . وكيف أن الكثير من الجنوبيين يسيرون عراة في الطرقات من دون أن يبذل الحكام الإنجليز أي مجهود يذكر لدفعهم لارتداء مايستر العورة .

باختصار تعلمت منه الكثير عن الجنوب لانه في ذلك الزمن لم نكن نشاهد جنوبيين في امدرمان بينما كنا نشاهد الكثير من أبناء النوبة في قوة دفاع السودان وبعض المهن الأخرى .

صداقتي لعمر أشعلت في نفسي فضولاً وحباً لمعرفة الكثير عن الجنوب . وأنا انتهز هذه السانحة لاشكر صديق الطفولة على ما امدنى به من معلومات كان يجهلها الكثير

من أقراني واظننى من أوائل الأطفال في شمال السودان الذين عرفوا أن السفر إلى جنوب السودان يحتاج إلى إذن خاص.

بعد ذلك وفى مرحلة لاحقه من العمر عرفت المزيد عن الجنوب من ابن خالتي كمال حامد شداد (أستاذ الفلسفة بجامعة الخرطوم وخبير الرياضة المرموق الآن) حيث كان والدهم المهندس حامد إبراهيم شداد يعمل في ملكال لسنوات طوال. وكنت التقى بكمال كلما حضروا في الإجازة لام درمان واستقى منه المزيد من المعلومات عن الجنوب.

في أول يوم دراسي بالسنة الأولى بثانوي الأحفاد في أواخر الأربعينات جاءنا العميد يوسف بدرى في الحصة الأولى واخذ يسأل كل منا عن اسمه وقبيلته ثم يدلى له ولنا بمعلومات عن أسرة ذلك الطالب وأبيه وأمه وقبليته كانت بمثابة درس لنا عن قبائل السودان المختلفة وربما كان أول دروس المواطنة بالنسبة لنا. بالإضافة إلى انه كان تعارفا لنا خرجنا بعده نعرف الكثير عن زملاء الفصل الآخرين. بالسؤال عن قبيلته قال محمد عثمان إسماعيل سالم انه دينكاوى وقال محمود عثمان على كيله انه شلكاوى. وبالرغم من اغتباطي لمعلوماتي عن الدينكا والشلك والنوير إلا أنني استغربت كيف يكون هذا دينكاوى وهو يسكن فريق ريد خلف دار الرياضة بامدرمان- وذلك شلكاوى وهو يسكن في شارع الشيخ الفيل بالمورده ولا يوجد إي خلاف بيننا لافى طريقة نطق العربية ولافى الدين ولا العادات اللهم إلا في لون البشرة الداكن. بل انهم في اللهجة العامية لأواسط السودان كانوا افصح من حسين بازرعه الذي كان يزاملنا في ذلك الفصل الدراسي. وكان محمود كيله هو أول من لفت نظرنا في الأحفاد الثانوية للفنان عثمان حسين وهو رائد تكوين جمعية معجبى عثمان حسين في المدرسة.

من كل هـذه الأشـياء بـدأت تتبلـور لـدي فكـرة المواطنـة وابنـاء الوطـن الواحـد خصوصا بعد أن توطدت صداقتنا التجـاني فضـل الله وشـخصي مـع محمـود كيلـه والـتي اسـتمرت في الحيـاة العمليـة عقـب تخرجـه مـن الكليـة الحربيـة وتخرجنـا مـن الجامعات.وحين اعتقل كيله وفصل من القوات المسلحة بتهمـة الاشـتراك في انقـلاب عسكري كان ذلك أمرا كئيباً كدر صفونـا ولـم تفـتر همتنـا التجـانى وأنـا في التوسـط والسعى لكل ما يخفف عنه الحكم ولم ننقطع عن زيارته والاتصال بـه كلمـا اسـتطعنا ولـم نتوقف عن إرسال الرسائل له حتى حين نقل للسجن في كسلا .

وكان يوم الإفراج عنه و أعادته للقوات المسلحة من اسعد أيام حياتنا أقمنا له حفلا غنائياً كبيراً أحياه الفنان سيد خليفة ، كان عرساً كبيراً في شارع الفيل وفى الموردة على وجه العموم .

ثم كان العميد محمود عثمان على كيله ضمن من استشـهدوا في بيـت الضيافـة ولا أستطيع أن اعبر عن أحزاننا لما حدث ويكفى أنني طوال حيـاتي كتبـت ثلاثـة قصـائد فقط في الرثاء-كانت إحداها في رثاء محمود كيله .

هكذا تعلمت ماهية الوطن والمواطنة في الأحفاد .

جاء التمرد في عام ١٩٥٥ ليزعزع هذا الفـهم بعنـف ويدمـر كـل مـا بنينـاه طـوال السنين السابقة . وعايشنا أياما غاية في الألم والخوف . كانت تصلنا أسمـاء الضحايـا يوماً بعد يوم . فقدنا أغلى شباب السودان في القوات المسلحة والسلك الإداري وكـان استشهاد عصمت بحيرى زميل الدراسة من الروضة إلى الثـانوي-وحـده ألمـا يلازمنـى لبقية العمر .

وامتدت سنوات التمرد ثـم قـام التمـرد الثـاني والـذي لا يـزال . وزوابـع الحـيرة والأسى والأسئلة التي لا أجد لها جواباً تملأ نفسي . لماذا هذا ؟ ولماذا .. ؟!

ما هو الوطن؟!

من هم المواطنون الذين يجب أن يجمعهم الوطن الواحد؟ ويقولون ملء أفواههم نحن مواطنون في هذا الوطن؟!.

كيف يكون الكيان الذي يمكن أن نطلق عليه اسم وطن ؟ وماذا يؤهل الفرد أن يكون مواطناً في هذا الكيان ؟.

هل يمكن أن يكون السودان وطناً لكل أبنائه بوصفه الحالي؟

كيف يمكن أن يصبح السودان وطناً أو أوطانا تضم أبناءه؟

كم عدد هذه الأوطان ؟ هل يمكن أن يتم ذلك قبل نهاية القرن الحادي والعشرين. ؟

اكتب هذا وأنا ارى اليوم جامعة الأحفاد للبنات تضم أعدادا كبيرة من الطالبات من جنوب السودان في مختلف كلياتها وقد علمت إن بعضهن قد قبلن مجاناً نظراً لظروف الحرب في الجنوب ولظروفهن الخاصة في النزوح إلى الشمال.

وهكذا لاتزال معاني الوطن والمواطنه والوطنيه في الأحفاد كما غرسها شيخ بابكر بدرى منذ اكثر من نصف قرن كما هي لاتزال كما تعلمناها وعايشناها بالرغم من كل ما حدث ويحدث في هذه الأيام.

ولعمري أن هذا فهم يقصر عنه إدراك الكثير من الساسة في الجنوب والشمال.

الأحفاد والنظام العام

في مساء الاثنين ٢٤ يوليو عام ٢٠٠٠ حرصت أن اسهر مع التلفزيون السوداني لاتابع حلقات برامج وجهاً لوجه الذي يقدمه الإعلامي اللامع الأستاذ بابكر حنين.

والذي شدني لمتابعة تلك الحلقات انه في حلقة سابقه أثيرت حادثة اعتقال الطالبات من جامعة الأحفاد للبنات بوساطة العاملين في جهاز النظام العام وإجراء محاكمات إيجازية سريعة. جلدن بعدها بحجة اللبس الفاضح.

وفى تلك الحلقة استمعنا لمداخله من طبيب والد طالبة كانت ضمن الطالبات اللائى اعتقلن وجلدن وكانت مداخلته في الحقيقة مرافعة قانونية رفيعة المستوى - وذكر أن ابنته كانت ترتدى بنطلونا واسعا وقميصا فضفاضا بأكمام طويلة وطرحه. وتسآءل أن كان هذا الزي يعد لباساً فاضحاً. وقال انه حسب نشأته والطريقة التي تربى عليها أبناءه وبناته لايمكن لأي من بناته أن تخرج بلبس فاضح.

وللحقيقة والتاريخ أقول أن معرفتي الشخصية بذلك الطبيب ترجع لسنوات عديدة قبل أن تولد ابنته الجامعية التي جلدت. وانه كان ضمن رواد الجيل الذي بدأ التوجه الإسلامي في أوساط الطلبه.

واجزم انه لايمكن أن تخرج من بيت ذلك الطبيب فتاة أو امرأة دون أن يكون الاحتشام ثوبها ولباسها. جلست في تلك الأمسية لاتابع بقية الحلقات وجاوزت الساعة الحادية عشرة ليلاً ولم يبدأ البرامج المنتظر. وبعد قليل اطل مذيع الربط ليقول لنا إننا سنشاهد برنامج عن قبيلة النوير.

يبدو أن الإحباط الذي أصابني في تلك اللحظات جمد أطرافي فلم يبادر إصبعي السبابة بالضغط على الريموت كنترول لإطفاء جهاز التلفزيون.

وجلست ساهماً احدث نفسي أحاول أن اعرف الأسباب التي دعت لإلغاء الحلقة. ومضى وقت انتبهت بعده أن هناك شبانا وشابات من النوير يقدمون رقصة سماها المذيع.

ولا أريد أن اصف تلك الرقصة كما شاهدتها وشاهدها معي من كان لا يزال يجلس أمام التلفزيون ولكن باختصار شديد أقول إذا أدت تلك الرقصة فتيات من الشمال بنفس الملابس التي أدت بها بنات النوير لكان نصيبهن الجلد لا محالة من قبل النظام العام.

كيف إذن تعتقل طالبات الأحفاد من الجامعة ويجلدن وتعرض علينا فتيات النوير مثل تلك الرقصات ليشاهدها ملايين الرجال والنساء والأطفال داخل وخارج السودان وهى تبث من القناة الفضائية من داخل ولاية الخرطوم ؟؟.

ولماذا يمكن لأي فتاة جنوبية أن تجوب شوارع الخرطوم بملابس اقل ما يقال عنها

أنها لاتفى بمتطلبات النظام العام وتمنع بعض الطالبات من دخول جامعة الخرطـوم إذا ارتفعت فساتينهن إلى منتصف الساق؟!

هل يجيء الوقت الـذي تطالب فيه بناتنا في الشمال بالمساواة وبمنحهن بعض الحريات والمزايا التي تتمتع بها أخواتهن الجنوبيات وبعض الأجنبيات داخل ولاية الخرطوم.

عزاؤنا إن هذا القانون الخاص بولاية الخرطوم سيعاد النظر فيه بغرض تجنب الممارسات الخاطئة في التطبيق. للحقيقة والتاريخ وإنصافا للأحفاد ولشيخها الجليل الشيخ بابكر بدرى لابد من توضيح الآتي:

أولاً: فكرة تعليم المرأة في السودان والتي جاء بها الشيخ بابكر بدرى في أوائل القرن العشرين والتي حرص أن يبدأ بتطبيقها على بناته و أهل بيته واللائى كن الدفعة الأولى لمدارس الأحفاد؛ هذه الفكرة كان الغرض منها أن شيخنا الجليل قصد أن يزود المرأة في السودان بالعلم الذي يكون عونا لها على فهم أمور دينها ودنياها وان يحميها ويصونها من جهالة العادات والممارسات التي كانت سائدة في ذلك العصر- بالإضافة إلى أن العلم يؤهل المرأة لتربى الأجيال وفق تعاليم الدين الحنيف وتكون القدوة الصالحة لفتيات المستقبل.

فبقراءة القرآن - والقرآن يهدى للتي هي أقوم - تكون المرأة قد تسلحت بالأيمان الذي يعصمها عن المفاسد التي تذخر بها الحياة الدنيا.

الأمر الثاني: والذي لابد أن نضعه نصب أعيننا - أن منشئ الأحفاد رجل اقل ما يقال عنه انه مجاهد في سبيل الله ركل الدنيا وحمل سيفه خلف لواء الدعوة الإسلامية في المهدية ولقى في سبيل ذلك مالقى من ويلات الحرب وذل الأسر وضنك العيش باذلاً كل ما يملك في سبيل الإسلام.

فإذا كان هذا هو الأساس والنهج الـذي ارتضتـه الأحفـاد فمـا بـال أقـوام يرمـون جامعة الأحفاد ـ بحديث الإفك ولغو الكـلام يريـدون بذلـك أن يطفئـوا نـور المعرفـة المتميزة والخلق القويم الذي كان ولا يزال هو ديدن الأحفاد .

ونحن تلاميذ في السنة الرابعة الأولية بالأحفاد (٨سنوات) كنا نحفظ مـا يزيـد علـى ثلاثة أجزاء من القرآن مع ذخيرة من الفقه ومعرفة العبادات لمسنا أثرها واثرائها لحياتنـا في المستقبل .

الأمر الثالث : إن الأحفاد أول من انشأ جامعة خصصت للبنات فقط .

في ذكرى الاحتفال باليوبيل الفضي لكلية المعلمات خـاطب الشـيخ بـابكر بـدري الاحتفال .

خطاب الشيخ بابكر بدري

في احتفال اليوبيل الفضي لكلية المعلمات بامدرمان عام ١٩٤٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد، فأحييكم وأحييكن احسن تحية، واشكر السيدة الجليلة الدكتورة بزلى مديرة تعليم البنات بالسودان، حيث هيأت لي هذه الفرصة، التي اعد نفسي سعيدا بحضوري حفل أول يوبيل فضي لافتتاح كلية تعليم البنات تعليما مدنيا صحيحا (فكاهة). ولكن هل تروني احضر يوبيلها الفضي واجلس فيه بمجلسي هذا حيث يكون عمري آنذاك ١١١ سنة وإذا حضرته وخاطبتكن هل تسمعن صوتي أو تميزن لفظي.

سادتي :

سمعت بعض الناس يعتقدون أني أول من نظر في تعليم البنت السودانية، مما دعاني للبحث الدقيق عن هذه الحقيقة الغامضة، فهاكم ما حصلته في بحثي في الكتب التاريخية القليلة، وما عرفته بسؤالي من كان لهم معلومات بهذا الشان.

أولا : أن تعليم البنات كان قاصرا على حفظ القران الشريف وكتب الدين.

ثانيا : أن أول بنت تعلمت هي فاطمة بنت جابر بن بلال التي حفظت القران على والدها، وقرأت العلوم الدينية عن إخوانها الأربعة الذين كانوا أول من نقل مختصر خليل للسودان، وذلك قبل ثلاثمائة واربعين سنة. وفاطمة هذه هي والدة الشيخ الزين صغيرون الذي ختم المنتصر خمسين مرة في خمسين سنة. وبواسطة تلاميذه، الذين منهم الشيخ خوجلى، انتشر مختصر خليل في جزيرة سيناء.

ثالثا : حصلت فترة طويلة لم اقف فيها على خبر لتعليم البنت حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجري، حيث بدا القاضي عربي المتوفى سنة ١٢٦٠هـ بواسطة زوجته الفقيرة آمنة الهوارية، فعلمت بناته منها ومن غيرها وبعض بنات الحي القريب. وكان مجموع من تعلمن عندها ممن حفظن القران إحدى عشر بنتا. واستمر التعليم في حفيداته اللاتي يبلغن تسعة، منهن : الفقيرة ميمونة بنت عبد القادر التي علمت بنات المهدى " عم " وأختها رقية. واقتدى بالقاضى عربي الشيخ البدوي أبو صفية وكلاهما بكر دفان بالقرب من مدينة الأبيض. وممن حفظن القران وقرأن الكتب الدينية آمنة بنت وهب والدة الشيخ أبو القاسم هاشم، تعلمت من والدها الفقيه محمد ولد المبارك بقرية بري المحس. فمنهن مريم بنت الحاج عطوة والدة الشيخ مجذوب جلال الدين، المدرس الآن بالمعهد بامدرمان. وكانت مريم هذه تدارس زوجها القران ليلا، وقال انه يخشى إن تغلطه لجودة حفظها، وأنها قرأت في العلوم الدينية عقائد وعبادات إلى كتاب رسالة ابن أبى زيد. ومنهن أختها آمنة بنت الحاج عطوة زوجة

الشيخ محمد الشيخ العالم الشهير ووالدة ابنة الشيخ المهدى الذي كان باشكاتبا بالمحاكم الشرعية بالمديريات . ولقد رأيت قبل ٥٦ عاما بمدينة سواكن خلاوى لتعليم البنات خاصة تعليما دينيا. قيل لي أن السيد محمد عثمان الميرغنى عند مروره الأخير لمكة المكرمة أمر أهالي سواكن بتعليم بناتهن العلوم الدينية مع الكتابة والقراءة. هذا ما وقفت عليه حتى اليوم. سأواصل بحثي حتى احصل على كل ما يمكنني الحصول عليه واعمل به كراسة أضيف إليه ما تعلمته البنت في هذه الحكومة.

بناتي، هذا تاريخ تعليم البنات في الأطوار الأولى، أما تعليمكن الآن فقد خطا خطوات سريعة في فترة وجيزة، حيث بدا في سنة ١٩٠٧ م برفاعة إلى سنة ١٩٢١ م حيث فتحت كلية المعلمات لم يتجاوز عدد المدارس الأولية بل لم يكمل العشر في كل السودان. ولكن الآن، بحمد الله فتحت المدرسة الوسطى سنة ١٩٤٠ م وفتحت الثانوية في أول سنة ١٩٤٢ م. ونتعشم أن تجتهد المس كلارك في فتح فصلين لاولى في السنة المقبلة. كما نتعشم ألا يبارح الرجل الميمون العظيم صديقنا المستر وليمس، حتى يوفق لفتح جامعة السير كرى للبنات، لتحفظ نسبة التعليم بين البنت التي هي المدرسة الأولى للجيل القادم وبين أخيها متخرج جامعة غردون، ليلدا ولدا يخدم البلاد بحق.

أي بنياتى إن على البنت المتعلمة مسؤولية عظمى للوطن، ولا يمكنها أن تؤديها موفورة إلا إذا تلقت العلم بعقلها وحفظته في ذهنها ووعته حقا بفهمها، واستعملته في بيتها، ولقنته على اصله تلميذاتها بلبابة، وإذا صارت زوجة تدير على قواعده بيتها عملا ومعاملة، وإذا صارت إما أرضعته طفلها في لبنها وغذته بنوره وعودته العمل به من صغره، فينشا رجلا قوى البدن حرا في رأيه حسنا في خلقه مجدا في عمله محبا لوطنه فيتكون من هذا النوع جيل مفيد للبلاد.

أي بنياتى، إن تعليم ألام للبنت أنجع من تعليم الأب في سن الطفولة والأساس الذي تبني عليه المدرسة ثقافتها علما أو عملا. لان ألام الصق بالطفل واكثر مكوثا معه من والده واصبر على معالجته. ولذلك أسندت أليها الشريعة الإسلامية الحضانة.

أي بنياتى، اقتدين بمعلمتكن الإنجليزية بالنظافة في ثوبها وبدنها، وبنظافتها في بيتها ومكتبها، وحرصها على علمها وعملها، واستعملنه كثيرا حتى يصير لكن عادة تصدر منكن بلا نكاف ولا تعمد، فبهذا، ومع تطبيق العلم، تصرن حريات بان تخرجن للبلاد رجالا ينهضون حقا بعبئها المنتظر، الذي يفاجؤهم متطلبا الكفاءات الحقة للمسؤوليات العظمى التي تسند إلي الوطنيين، حينما يظللهم علم البلاد عند استقلالها المنتظر قريبا إن شاء الله تعالى. ولا اشك في إنني أودعت هذه النصائح أذنا واعية منكن، وعقولا واعيات عاملات، فبكن والله المرجو، أن يوفقكن للقيام بهذا الواجب العظيم.

هذا ولا يفوتني أن اذكر سعادة مدير المعارف السودانية وسعادة مديرة تعليم البنات بالسودان، وهما من الأمة البريطانية التي تقدر أعمال العاملين وتكافؤهم عليها. اذكرهما ألا يحرما مدينة رفاعة من مدرسة وسطى لتعليم بناتها، وهى التي قدمت بناتها لوضع حجر أساس تعليم البنت، متحملة التشنيع في وقت يعتبر تعليم البنت مروقا من الدين وخروجا على العرض .وختاما اكرر شكري للدكتورة بزلى ولسعادة المستر وليمس على تشجيعه وتنازله لحضورهن إليكن . ورجائي للمس كلارك أن تفكر جديا في عمل سنة أولى فصلين في سنة ١٩٤٨ م لتضم عددا كبيرا من طالبات الالتحاق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

من هذا الخطاب نرى بوضوح إن الشيخ بـابكر بـدرى كـان يعلـم أن كـل النـاس يسلمون بأنه أول من اهتم بتعليم المرأة بالسودان ، ولا شك إن أي إنسـان أخـر غـيره كان سيسعد ويكتفى بذلك .

إلا أن النهج العلمي في البحث وراء الحقيقـة جعـل الشـيخ بـابكر بـدرى يذهـب لينقب في تاريخ تعليم المرأة حتى وصل الى ما ورد في الخطاب .

وما وصل إليه يوضوح بجلاء أن من تعلمن من النساء اقتصر تعليمهن على القـران وعلوم الدين وأقتصر تعليمهن لبناتهن على ذلك .

وعليه يكون الشيخ بابكر بدرى بالفعل أول من عنى بتعليم المرأة تعليماً حديثـاً إلي جانب القران والدين وأول من بات يحلم بجامعة للبنات (جامعة السير كـرى للبنـات) وظل يخطط ويعمل إلى أن تاسست كلية الأحفـاد الجامعيـة للبنـات وجامعـة الأحفـاد للبنات عقب رحيله . رحمة الله وجزاه عن بنات السودان خير الجزاء .

والغريب انه لم يفتح الله بكلمه اطراء واحـدة علـي الذيـن نصبـوا انفسـهم أئمـة للفضيلة وحماة للإسلام- لم يفتح الله عليهم بكلمة ثناء على هذا التوجه الحميد والـذي لا اشك انه يوفر للفتيات مناخا أصفى للتفرغ للعلم والتحصيل بعكس الـذي عرفنـاه وعايشناه نحن خريجي جامعات التعليم المختلط .

للكثير من جامعات العالم المميزة شـعار يكتـب دائمـاً في الجامعـة وعلـى أوراقـها الرسمية وشهاداتها وغالباً ما يؤخذ هذا الشعار من التوجـهات والأهـداف الـتي مـن اجلها أنشئت الجامعة .

وقد اختارت جامعة الأحفاد للبنات شعارها .

﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ [من الآية ٧٦ من سورة مريم]

وكأن الأحفاد تقول للناس (هاؤم اقرءوا كتابيه)

النظام العام

قانون النظام العام ـ قانون خاص بولاية الخرطوم دون غيرها من ولايات السـودان. والقانون كما هو وارد في نصوصه ـ يستقي توجهاته من الشـرع والأعـراف. والعـرف هنا بالطبع هو العرف في ولاية الخرطوم إذ لا توجد أعراف موحدة تتفق حولهـا جميـع ولايات السودان.

والمحافظة علي النظام العام وآداب السلوك موجودة في كل قوانين الدنيا كما توجد كذلك في قوانين السودان السابقة والحالية.

وبديهي إن الناس يحرصون علي وجـود قـانون ينظـم حيـاة مجتمعـهم في النواحـي الاجتماعية والأمنية والصحية والبيئية.

هناك العديد من الأسئلة التي يتداولها الناس ولا يجدون لها الإجابة الشافية.

- إذا كان السودان وطنا واحدا لجميع السودانيين فلماذا يسن قانون يخصص لولاية واحدة دون الخمس والعشرين ولاية الأخرى في السودان ؟

- بما أن الشرع بيّنْ - فهل يجوز أن نقوم بتطبيقه في ولاية واحدة دون سائر الولايات؟

- ونظرا لاختلاف الأعراف في ولايات السودان فمن هم الذين وضعوا قانون النظام العام في ولاية الخرطوم ؟

- هل هم من أبناء العاصمة مولدا ونشأة وتعليما ؟!

- هل يعقل أن يستجلب أشخاص غرباء علي مجتمع العاصمة ليضعوا من القوانين ما يرون انه يجب أن يكون العرف السائد في العاصمة ؟

- هل القائمون علي تطبيق النظام في ولاية الخرطوم هم في الأصل من أبناء الولاية أم أنهم أشخاص نشأوا في مجتمعات مختلفة وان مفهومهم للأعراف التي يجب أن تسود المجتمع يختلف عن مفهوم أهل ولاية الخرطوم.

- في المجتمعات المتحضرة يقوم الناس بانتخاب الهيئات التي يناط بها سن التشريعات والقوانين التي تحكمهم. فهل قام أهل ولاية الخرطوم بانتخاب من وضعوا قانون النظام العام ويشرفون على تطبيقه بينهم ؟ "وامرهم شورى بينهم" صدق الله العظيم ، وهذا أمر يخص أهل ولاية الخرطوم.

- هل ممارسات التطبيق في شرطة النظام العام تتفق مع تعاليم الدين الإسلامي ؟ " يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا علي أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فأن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وأن قيل لكم أرجعوا فأرجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم " صدق الله العظيم

- الطريقة التي يتم بها القبض على النساء والفتيات بواسطة رجال شرطة النظام العام واقتيادهن ودفعهن للركوب في عربات الشرطة وجلدهن هل هي من روح وسماحة الإسلام في شئ؟
- هل يعنى عمل قانون للنظام العام خاص بولاية الخرطوم هل يعنى أن كل ولاية يمكن أن تسن قانونا خاصا بها وعلى المواطن أن يلم بكل تلك القوانين حتى لا يكون عرضة للعقوبات في أثناء تنقله داخل بلاده.
- هل ستكون الفوارق كما في بعض قوانين الولايات المتحدة الأمريكية، والتي لا توجد في بعضها عقوبة الإعدام وعلى من يريد أن يقتل أحدا أن يستدرجه إلى إحدى تلك الولايات. كما أن هناك ولايات تختلف فيها قوانين الأحوال الشخصية ويسافر بعض الأزواج أو الزوجات لإجراء الطلاق في الولاية التي تسهل قوانينها هذا الأمر وبأقل التكاليف.

في عام ١٩٤٨ اصطحبني الوالد معه إلى استراحة أر كويت الصيفية حيث اعتاد أن يقضى عطلته كل عام هناك. وفى ذلك العام كان الأستاذ الكبير والمربى الجليل العم عبيد عبد النور ضمن زوار الاستراحة.

سألني الأستاذ عبيد أن كنت قد شهدت من قبل زواجاً هدندوياً ولما أجبت بالنفى عرض على أن اصحبه إلى حفل كان سيقام ذلك اليوم في مكان ليس ببعيد من مقر الاستراحة وقبلت العرض مسرورا.

في ذلك الحفل شهدت لأول مرة رقص الهدندوة رجالا ونساءا. كان رقص الرجال يرتكز أساسا على حركة السيوف والأعناق، أما رقص النساء فقد كان وأظنه لا يزال - يرتكز على حركة الصدر والأرداف.

ولما كنت في الرابعة عشر من عمري ولم ابلغ الحلم بعد لم أجد في ذلك الرقص أي

نوع من الإثارة الجنسية ولست أدرى ماذا سيكون شعوري لو كنت في العشرين من العمر.

كان في الحفل حشد من الرجال والفتيان يشاركون في الرقص والغناء بطريقة لا تحسَ من خلالها شعورا غير البهجة والفرح مما يدل على أن رقص النساء والفتيات بتلك الطريقة أمر اعتادوا عليه وشيء متعارف لديهم نشأوا وهم يمارسونه في مناسباتهم.

في رحلتنا إلى الابيض ونحن في مدرسة الأحفاد الثانوية والتي زرنا فيها بعض الأسواق الشعبية في تلك المدينة رأيت للمرة الأولى فتيات البقارة مع ماشيتهن. كانت الطريقة التي يرتدين بها الثوب تختلف كثيرا عن طريقة ارتدائه في العاصمة. لم يكن الثوب يغطى الرأس ولا الذراعين وكان ابعد ما يكون عن الحجاب الإسلامي. أخذت لنا بعض الصور في أحد الأسواق ولما أردنا اخذ صورة مع إحدى الفتيات وبجانبها الثور الذي كانت ممسكة به لم اشعر إلا وأنا أضع يدي على كتفها بتلقائية دون أي دوافع أخرى. وبالرغم من أن ذلك كان وسط السوق فلم يلفت تصرفي ذلك أي انتباه ولم يستنكره أحد ومضى الجميع في حال سبيلهم.

طبعا كان الأمر سيكون مختلفا جدا لو أن ذلك حدث في أحد أسواق العاصمة. فبمجرد أن تصيح الفتاة مستنكرة ذلك، كانت العديد من أيدي المارة ستطالنى بما يتيسر لها من ضرب وتلاحقني ألفاظا وشتائم تزهق الروح الرومانسية البريئة التي دفعتني إلى ذلك الفعل.

في أغسطس عام ١٩٩٩ أحرزت كريمتا الصديق العزيز الأستاذ محمد الحسن احمد درجات عليا في امتحانات A Level وO Level كانت مفخرة لجميع السودانيين الذين يعيشون في إنجلترا. ودعينا إلى العشاء بمنزلهم في حفل ضم العديد من الأسر

السودانية المقيمة في لندن وخارجها وكان حفلا بهيجا التقينا فيه بالعديد من الأصدقاء والمعارف أضفى الفنان سامي المغربي على الحفل المزيد من الفرح بالغناء والموسيقى. وفي حوالي الثانية عشرة عند منتصف الليل ونحن نهم بمغادرة الحفل رأينا رجلين إنجليزيين يقفان في أدب جم في الشارع عند الباب الخارجي.

ظننت في بادئ الأمر انهما من الجيران وان الغناء والموسيقى اجتذبتهم بألحاننا الأفريقية العربية وانهما يريدان الدخول للمشاركة. وعند سؤالهما طلبا أن يقابلا صاحب المنزل وعلمنا انهما مندوبا المجلس المحلى للحى(Local Council) وان السبب في حضورهما أن مكبرات الصوت تغطى مساحة كبيرة من ألحي مما يسبب بعض الإزعاج لفئة من السكان وانهما يرجوان إسكات المكبرات أو خفضها بما لا يتجاوز حدود المنزل.

وحضر الأستاذ محمد الحسن و أسرع لتلبية رغبتهما والاعتذار عما حدث من مضايقات للجيران.

علمت فيما بعد أن المجلس يقوم بتعيين أفراد من الحي يكونون معنيين بالنظام العام في الحي مما يكفل راحة السكان في جميع النواحي الاجتماعية والصحية والبيئية والأمنية.وعجبت جدا للأسباب الآتية :

١ـ أولا أن الرجلين كانا يرتديان ملابس عادية في غاية من الأناقة.

٢ـ لم يكونا يحملان أي نوع من السلاح يعنى لا كلاشنكوف ولا مسدس ولا حتى عصا ، ولم يحملا حتى ورقة وقلم لتسجيل بلاغ.

٣ـ لم يقوما باقتحام الحفل ولا حتى طلبا الدخول بل طلبا الإذن أن يحضر لهما صاحب المنزل.

٤ـ حالما قيل لهما أن الحفل تقريبا انتهى وسيقوم صاحب المنزل بإجراء اللازم انصرفا شاكرين له.

وبسرعة استرجعت ذاكرتي بعض ما شهدت وما حكى لي عنه أصدقائي من الفنانين عن بعض ممارسات شرطة النظام العام بولاية الخرطوم في مثل تلك الأحوال.

وعجبت وتساءلت " انحن المسلمون وان هؤلاء القوم البريطانيون يطبقون تعاليم الإسلام نيابة عنا "

التسامح الديني

في السنة الرابعة بثانوي الأحفاد انتقلت المدرسة الثانوية بأكملها من مبانيها جنوب المجلس البلدي بامدرمان إلي المباني الجديدة ـ آنذاك ـ بحي العرضة.

هناك بدا العميد يوسف بدري تقليد الاجتماع الشامل في بداية الأسبوع لكل المدرسة. ذلك الاجتماع كان يبدأ بتلاوة للقران الكريم ثم تكون هناك محاضرة في موضوع عام يشمل ذلك التربية الوطنية وشتي مناحي الحياة. ولعله اخذ ذلك التقليد من الجامعة الأمريكية في بيروت حين كان يدرس الصيدلة وحيث درجت الجامعة علي إقامة ذلك الاجتماع في ما كان يسمى بال CHAPEL ولعل ذلك التقليد معمول به حتى الآن.

وكان موضوع حضور طلبة السنة الأولى الإجباري لاجتماع أل CHAPEL من أهم

المواضيع إثارة للغضب والتمرد في صفوف الطلبة غير المسيحيين عامة والمسلمين بصفة خاصة. وربما كان السبب في ذلك هو طابع التعصب الديني الذي يسيطر علي الحياة السياسية والاجتماعية في لبنان. وكان اجتماع أل CHAPEL يختتم دائما بترتيل لجزء قصير من الإنجيل. ولعل ذلك كان قمة ما يعتبره الطلبة المسلمون من قهر ديني. وكان التغيب عن حضور ألsaleh يعتبر غيابا ويحتسب كأي غياب عن المحاضرات ويدخل في نظام أل CUTS ـ (عدد مرات الغياب المسموح بها) ـ مثله في ذلك مثل أي محاضرة.

وبالرغم من إنني عندما سافرت إلي لبنان فوجئت بالتعصب الديني الشديد بين المسلمين والمسيحين والذي كانت المناصب السياسية فيه تقسم حسب الدستور الذي وضعته فرنسا والذي يجعل للمسيحين اليد العليا بما في ذلك رئاسة الجمهورية أقول بالرغم من ذلك فقد كنت اقل غضبا وتمردا من زملاء كثيرين من لبنان وبعض البلاد العربية الأخرى. أظن أن من الأسباب المهمة هو أن مثل ذلك التعصب الديني لم نكن نعرفه في السودان بصفة عامة وقد زاملنا في الأحفاد بعض الاخوة المسيحيين ولم نكن نشعر ولا هم أيضا بان هناك فوارق بيننا علي الإطلاق. كان معنا في مدرسة الأحفاد الأولية تلميذ يدعي كمال تكلا اسطفانوس ؛ وبالرغم من غرابة الاسم فقد اكتفيت بالإعجاب بموسيقيته دون أن أفكر لماذا ! أو اشعر بأنه يختلف عني في أشياء أخرى مثل العقيدة الدينية. وحتى ذلك لم يكن ليهم كثيرا. وكان معنا في المدرسة الوسطى الياس انطون و . و . وغيرهم.

أكاد اجزم أن مثل ذلك الشعور لا يمكن أن يوجد في لبنان لان الأطفال هناك ومنذ نعومة أظافرهم يجدون أن أهلهم منشغلون ليلا ونهارا بالحديث عن الإسلام والمسيحية ؛ كل يتعصب لملته. ولعل الحرب الأهلية والتي استمرت أربعة عشر عاما خير شاهد علي ذلك.

وربما أيضا أن تعودي على الاجتماع الأسبوعي بالأحفاد الثانوية اظهر لي موضوع أل CHAPEL بأنه شيء مماثل.

والحق يقال إنني في ذلك أل CHAPEL استمعت الى محاضرات قيمة جدا من كبار الأساتذة والشخصيات العالمية مثل ظفر الله خان وكان وقتها رئيس محكمة العدل الدولية في لاهاي وشارل مالك مندوب لبنان في الأمم المتحدة آنذاك وكثيرين غيرهم من مختلف الأديان والجنسيات. غير أن تيار التعصب الديني كان قويا جدا بالرغم من أن الجامعة كانت تنتهز كل المناسبات لتنفي أن رسالتها مقرونة بالتبشير المسيحي.

ورأيت ومعي زميلان من الطلبة المسلمين أن نضع ذلك الادعاء محل الاختبار .

أمام أل CHAPEL كانت توجد مساحة صغيرة بها ميدان من النجيل الأخضر وبعض الأزهار .رأينا أن نصلي العصر جماعة في ذلك الميدان ؛ وقد كان ؛ ولم يحدث شيئا ؛ لم نتعرض لاستجواب أو محاولة منع. وفسر بعضنا ذلك بان إدارة الجامعة لا يمكن أن تظهر لنا رفضها علانية وان الإجراءات لابد ستتخذ ضدنا.

في أعياد الكريسماس (عيد الميلاد) كان مبني وست هول يزين بأشجار الكريسماس والأنوار والبالونات الملونة وبطاقات المعايدة بالإضافة إلي أن تلك المناسبة كانت عطلة رسمية في الجامعة تمتد لأكثر من أسبوع.

وطرأت لنا فكرة إعادة اختبار إدارة الجامعة بشكل آخر ؛ ولما كانت مناسبة المولد النبوي الشريف تمر بالجامعة كأي يوم عمل عادي فقد رأينا أن نقيم احتفالا بذلك اليوم. وتقدمنا لإدارة الجامعة بطلب مكتوب يوضح رغبتنا في الاحتفال مساء يوم المولد بقاعة الوست هول (القاعة الغربية) وأننا سندعو بعض الشخصيات الإسلامية في لبنان لإلقاء محاضرات بهذه المناسبة ؛ وتضمن الطلب دعوة لإدارة الجامعة لحضور ذلك الاحتفال؛ وجاء الرد بالقبول.

وفي يوم الاحتفال ولعلها المرة الأولى في تاريخ الجامعة الأمريكية تعالت الميكروفونات بتلاوة القران الكريم بصوت الشيخ فؤاد مؤذن المسجد القريب من الجامعة. وكان الحضور كبيرا جلسوا علي موائد متفرقة كان فوق كل مائدة بطاقة تحمل اسم موقعة من المواقع الإسلامية مثل بدر والقادسية و . و . .وحضر الدكتور قسطنطين زريق نائب رئيس الجامعة ممثلا للجامعة. كما حضر الدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدي من كبار الشخصيات الإسلامية في لبنان وتحدث الدكتور عمر فروخ وتحدث الطالب نبيل مهايني وتحدثت حديثا حرصت فيه أن ابرز عروبة السودان وروحه الإسلامية واستشهدت بأبيات من قصيدة شاعرنا الكبير احمد محمد صالح :

علم شباب الواديين	خلائق الرجل الأشد
علمهموا أن الخنوع	مذلة والجبن يردى
علمهموا أن التمسح	بالفرنجة غير مجد
وابن لهم أن العروبة	ركن إعزاز ومجد

ولم يفتني أن الحظ ابتسامة الدكتور قسطنطين زريق في تلك اللحظة فقد كان يعد من القوميين العرب فكريا.

وهكذا كان الاحتفال بهيجا ولست ادري أن كان قد تكرر بعد ذلك ؛ ولكن الذي أدريه انه لم تكن له أي رواسب سالبة فيما بعد.

بعدها بدأت نظرتي لاجتماع أل CHAPEL (مصلى أو معبد) تتغير ؛ وطالما ساءلت نفسي " ألم يكن لدينا في الأحفاد اجتماع مماثل ؟ " وهل طرا أبدا علي فكر أحدنا ونحن نجتمع أول الأسبوع في الأحفاد أي شعور بتفرقة أو بعصبية دينية أو

غيرها . ؟؟ أولم تكن الأحفاد هي أول من آوى أساتذة وطلبة شردوا من المدارس الحكومية لاسباب سياسية وفكرية لا تتفق مع مبادئ الأحفاد ولا الفكر السياسي العام في السودان المسلم ؟.

في السنوات المتعاقبة في الجامعة والتي لم يكن مفروضا عليَّ حضور أل CHAPEL فيها حرصت على الحضور كلما نمى ألي علمي إن شخصية مرموقة ستحاضر في ذلك اليوم. ولن انسي أن أول مرة أرى فيها الشاعر نزار قباني واستمع أليه كانت في أل CHAPEL بالجامعة الأمريكية ببيروت في ليلة شعرية مسائية ؛ في الوقت الذي كان معظم الطلبة المسلمين يمتنعون عن دخول أل CHAPEL بعد الفترة الإجبارية.

وهكذا كان جو الديمقراطية الرحب والتسامح الديني وسماحة تقبل الاختلاف الفكري الذي كان يغمر الأحفاد خير معين لي في التعامل الفعال في مختلف ضروب الحياة الجامعية والاشتراك في شتي المناشط ؛ في الوقت الذي كان فيه كثير من الطلبة المسلمين يبتعدون عن ذلك.

في السنة الأولى بالجامعة الأمريكية ببيروت (الفرشمان) تزاملت مع الصديق العزيز سليم عيسى عبد المسيح (الدكتور والقانوني الكبير لاحقا). كنا نسكن في نفس الداخلية .كان يشاركه في الغرفة طالب من العراق يدعى مروان الجليلي ابن أحد الأسر الكبيرة في الموصل وهو مسلم. بينما اشتركت في غرفتي مع هاريتون بابكيان وهو ارمني من الأردن (مسيحي). وبما إننا سليم وأنا ـ كنا الوحيدين من السودان فقد نمت بيننا صداقة وثيقة دون أن نشعر بذلك. كنا نقضي معظم أوقات فراغنا معا. ولنا من الذكريات ما يضيق هذا الكتاب عن تفصيلها. واذكر إننا في ليلة عيد الميلاد Christmas قررنا أن نتجول في راس بيروت لنشاهد مظاهر الاحتفالات بعيد ميلاد السيد المسيح. ضمن تلك الجولة دخلنا إحدى الكنائس وحضرنا جزء ا من الاحتفال فيها ومراسم الصلاة.

كانت تلك الكنيسة علي ما اذكر مارونية المذهب وهو غير المذهب الأرثوذكسي الشرقي القبطي الذي كان ينتمي إليه سليم .والذين يعرفون ضرواة الخلافات بين المذاهب المسيحية في لبنان لابد انهم يستغربون جدا دخول سليم وحضور الصلاة في غير كنيسته فما بالك بدخولي أنا المسلم ؟ تم كل ذلك دون أي تفكير أو تردد من أي منا. ولم نشعر بأي حرج في ذلك الأمر

في حوار كنا نستعيد فيه ذكريات بيروت ذكرني سليم بالزيارة التي جاءنا فيها إلى بيروت والدي دفع الله شبيكة وصديقه محمد علي شوقي والتي قابلا خلالها السيد صائب سلام رئيس وزراء لبنان في ذلك الوقت. وكان برفقتهما السيد نجيب طرزي الذي كان يعمل في الماضي في منصب رفيع بحكومة السودان. ذكرني سليم بان الوالد دعانا يوما ـ سليم وأنا ـ لتناول إفطار رمضان معهما في الفندق ب " عالية " حيث كانا يقيمان. وذهبنا بالفعل وتعرف الوالد علي سليم وكان بالطبع يعرف والده السيد/ عيسي عبد المسيح كأحد رجال الأعمال المعروفين لديه في الخرطوم والذي كان يشتهر بأنه صاحب " زيت الولد " المشهور وقتها.

وكان الأمر بالنسبة لسليم عاديا وطبيعيا جدا وعقب الإفطار ونحن راجعون إلى بيروت ناول الوالد كل منا مبلغا من المال وكان المبلغان متساويين.

وذكر لي سليم وقتها بأنه شعر أن الذي يعطيه المال والده تماما كما انه والدي.

ولابد أن اذكر هنا إن سليم بالرغم من انه كان وقتها في السنة الأولى من كلية العلوم fresh man science إلا انه كثيرا ما كان يذكر لي إعجابه بالزعيم السياسي والمحامى المصري الكبير مكرم عبيد. وان مكرم عبيد كان بالرغم من انه مسيحي قبطي إلا انه كان دائما يستشهد بآيات القران الكريم في خطبه السياسية ومرافعاته القانونية. ولعل تلك كانت البدايات لتغيير منهجه الدراسي من العلوم إلى القانون. وعلمت

أيضا أن سليم حينما كان تلميذا بمدرسة الخرطوم الوسطي كان يحضر حصص الدين الإسلامي كلها مثل بقية التلاميذ ولكن كانوا يمنعونه من الجلوس إلى الامتحانات فيها خوفا من أن يعين بقية التلاميذ نظرا لاستيعابه الجيد لها لأنه كان لديه دافع قوى لان يعرف الحقيقة وكيف ولماذا يدخل الذين كفروا النار ويدخل المؤمنون الجنة.

بعد السنة الأولى سافر سليم والتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة واستمرت صداقتي به مع بقية الشلة ـ التجاني فضل الله و مبارك حسن الخليفة ويوسف المغربي طوال سنوات الدراسة الجامعية. بعدها غادر إلى ألمانيا وواصل دراساته العليا في القانون حتى حصل على الدكتوراه وعاد إلي السودان الذي كان ولا يزال يحبه كثيرا. ومارس المهنة على أعلى المستويات لعل اشهرها كان توليه الدفاع في قضية شتاينر المعروفة.

عبر تلك السنين والى اليوم ما زال سليم يحتفظ بمكانته في قلبي صديقا عزيزا وأخا كريما قل أن يجود الزمان بمثله. ولا أنكر إنني سررت حين علمت في السنوات الأخيرة انه اعتنق الإسلام بالرغم من أن موضوع الدين لم يكن أبدا عاملا من عوامل صداقتنا.

في كلية الصيدلة بالجامعة الأمريكية كان جورج بهو اعز أصدقائي بل كان بالنسبة لي أخاً عزيزاً اشكر الله أن منَّ عليَّ بصداقته وتوثقت الصداقة بيني وبينه اكثر حين سكنا في داخلية المجلس الثقافي البريطاني ببيروت إذ حصل كلانا علي منحة المجلس والتي كانت تشمل السكن والوجبات وكان ذلك في السنتين الثالثة والرابعة بكلية الصيدلة.

عقب وجبة الغداء بمطعم المجلس كثيرا ما كان يحضر جورج إلى الغرفة التي كان يشاركني فيها الأخ مالك بدري ليصحبني إلى حصص المعامل والتي كانت تمتد بنا الى

ما بعد الظهيرة. وكثيرا ما كان يجدني اصلي الظهر فيجلس ساكنا حتى انتهي ونذهب سويا. وكثيرا أيضا ما أبدى لي جورج إعجابه بتديني وسلوكي المسلم رغم انه كان مسيحيا ولم يكن لديه كثير اهتمام بأمر الدين.

عقب تخرجنا وعندما بدأت الاستعداد للسفر ألي السودان اعترانا جورج وأنا حزن شديد ونحن نرى أن لحظات الفراق قد دنت ونوشك أن يودع أحدنا الآخر وداعا لا ندرى إن كنا سنلتقي بعده أبدا

في اليوم السابق لسفري قال جورج انه سيصطحبني في سيارته إلى المطار وجاء في صباح اليوم التالي وذهب إلى الغرفة ووجد إن حقيبتي معده وعلم إنني بالمطعم أتناول الإفطار. وجاءني في المطعم وجلس معي ولكنه كان (جورج) آخر غير الذي عرفت (الوجه الصبوح والبسمة التي لا تفارق شفتيه) كان شديد احمرار الوجه يكاد الدمع أن يطفر من عينيه وقد اعتراه ما اعتراني من اضطراب حين قربت لحظات الوداع.

لم يستطع البقاء معي وقال انه ذاهب إلى غرفته لإحضار شيء ما. وبعد ذهابه لم استطع الاستمرار في تناول الإفطار ونزلت ألي غرفتي ثم خطر لي خاطر دعاني ألي النظر من البلكونة التي تطل على الشارع وصدق حسي حين لم أجد عربة جورج تقف في مكانها. فأسرعت ونزلت بحقيبتي ألي الشارع وأخذت عربة أجرة إلى المطار وغادرت بيروت.

واضح أن كلانا تعمد أن يهرب من لحظات الوداع والتي ما كنا ندري كيف نستطيع الاستمرار في مجالدة الصبر عليها. لم تنقطع المراسلات بيننا طوال السنوات التالية وفي عام ١٩٦٦ فاجأت جورج أو (درج) كما كنا نلقبه في الكلية ببرقية أخبرته إنني قادم لزيارته في مدينة رام الله وإنني سأصل مطار القدس في اليوم التالي. استقبلني جورج في المطار وهو يكاد يطير فرحا واخبرني إنني بعد ساعتين ساكون ضمن وفد

أسرته لنذهب لنخطب له الفتاة التي اختارها زوجة من أهلها. وكم سعد والده وأهله بحضوري بينهم لما علموه بما يربط بيني وبين جورج من اخوة. وفي فبراير ١٩٦٧ جاء جورج إلى السودان ليمضي جزءا من شهر العسل مع عروسه وليرى السودان الذي طالما حكيت له عنه.

تلك النماذج لا تحتاج إلى إيضاح لما تربينا عليه في الأحفاد الشيء الذي لم أجده عند معظم زملائنا من الطلبة العرب والبعض من الزملاء السودانيين.

النظرة للأديان الأخرى:

كما ذكرت في غير هذا الموضع أننا في الأحفاد لم نكن نلمس أو نحس أي فرق بيننا وبين التلاميذ الذين كانوا على غير دين الإسلام وضربت مثلاً أن التلميذ كمال تكلا اسطفانوس لم يكن يلفت نظري في أي شئ سوى لون بشرته واسمه الموسيقي. ولعل هذا الشعور كان السائد في أم درمان عموماً في ذلك الوقت.

غير أنني تلقيت صدمة كبيرة حينما سافرت إلى بيروت للالتحاق بالجامعة الأمريكية. فقد كان لبنان وربما لا يزال يعتبر مهد الحضارة في الشرق العربي ومصدر الإشعاع الثقافي والحرية الفكرية. غير أنني أصبت بخيبة أمل عندما أحسست منذ اليوم الأول لوصولي أن بعض الناس هناك يحرصون منذ البداية لمعرفة دينك وأن ذلك له تأثير على نوع التعامل الذي تتلقاه بعد ذلك.

بالرغم من استيائي وغضبي في كثير من الأحيان لما يبديه بعض الأساتذة والإداريين والطلبة المسيحيين ضد الإسلام إلا أنني لم استطع أن أجاريهم في ذلك وكان شعوري نحوهم ينبني على أساس شخصي خاصة الزملاء والأساتذة ـ فقد كان ذلك ما تعلمناه في الأحفاد من الروضة إلى الثانوي.

ورب ضارة نافعة ـ فقد دفعني ذلك التعصب إلى دراسة المسيحية والمزيد من الدراسة في الفكر الإسلامي مما أفادني كثيراً في حياتي بعد ذلك. فلله الحمد والشكر.

أصدقاء الوالد

في منتصف الخمسينات زار بيروت والجامعة الأمريكية كل من العميد يوسف بدرى والأستاذ الكبير عبيد عبد النور.

خلال تلك الزيارة أعرب العميد يوسف بدرى عن عزمه لزيارة الدكتور يوسف نعمه في بلدة ريفون في جبل لبنان. وذكر أن الدكتور يوسف نعمه كان صديقا حميما للشيخ بابكر بدرى في أثناء عمله في السودان في زمن سابق. وطلب منى والأخ مالك بدري أن نصحبهم في تلك الزيارة.

في السيارة التي استأجرت لذلك الغرض والتي أخذت تشق طريقها إلى أعالي جبل لبنان بدأت أرى مناظر في غاية من الجمال يزداد جمالها كلما ارتفع الطريق نحو بلدة ريفون. بعد صمت وتأمل طويل اخذ الأستاذ عبيد عبد النور يصف جمال الطبيعة في تلك المناطق في شاعرية ورومانسية كانت المفتاح لكل ما أدركته لاحقا من الجمال في

لبنان والذي لم اكن أدركه من قبل. واذكر جيدا إن من ضمن ما قالـه " أليسـت هـذه جنة الله في الأرض " . . . . . . !!

كانت تلك بلا شك بداية تأملي وإحساسي بجمال لبنان. أظن أن ما جـاء في بعـض أشعاري عن لبنان كان البداية :

أنـا عشـت في لبنـان صفـوة صبوتـــي	والكـون خـص بســـحره لبنـــان
وشـهدت في الـــوادي الينــابيع الــتي	أوحـــت لشـــوقي درة وبيانـــا
ينســـاب فيــها المــاء يــروى جــنة	ويســـيل منــها مرقــــرقا ريانا

في بلدة ريفون النائيـة في قمـم جبـل لبنـان لم نجـد صعوبـة في الوصـول إلى مـنزل الدكتور يوسف نعمه إذ انه كان معروفا لدى جميع أهل البلدة.

دخلنا المنزل وكان في استقبالنا رجل في أواخر الثمانينات أو التسعين من العمر وقد بلغ من الكبر عتيا.

وما أن علم بان الزوار هم أبناء الشيخ بابكر بدري حتى تـهللت أساريره وومضت عيناه ببريق فرح وسعادة لا حد لها. وسرعان ما رأيت ذلك الوجه الشاحب وقـد بـدا الدم يجري في عروقه وانطلق اللسان يحكي ويسال في لهفة عن السودان و أهل السودان ثم بدأت الأسماء تتري وصار يسال عن الناس هناك فردا فردا. والعميد يحكي له عـن حال كل من يسال عنه.

لم أر في حياتي شيخا في مثل سن الدكتور يوسف نعمة تنطلـق أسـاريره وتومـض عيناه في فرح طفولي مثل ما رأيت في وجه الدكتور نعمة في ذلك اليوم .

عندما لمست اثر تلك الزيارة في نفـس ذلـك الرجـل الكبـير أدركـت الغـرض مـن إصرار العميد علي المشوار الطويل فقد كان يدرك ما يحمله الدكتور نعمه من حـــب

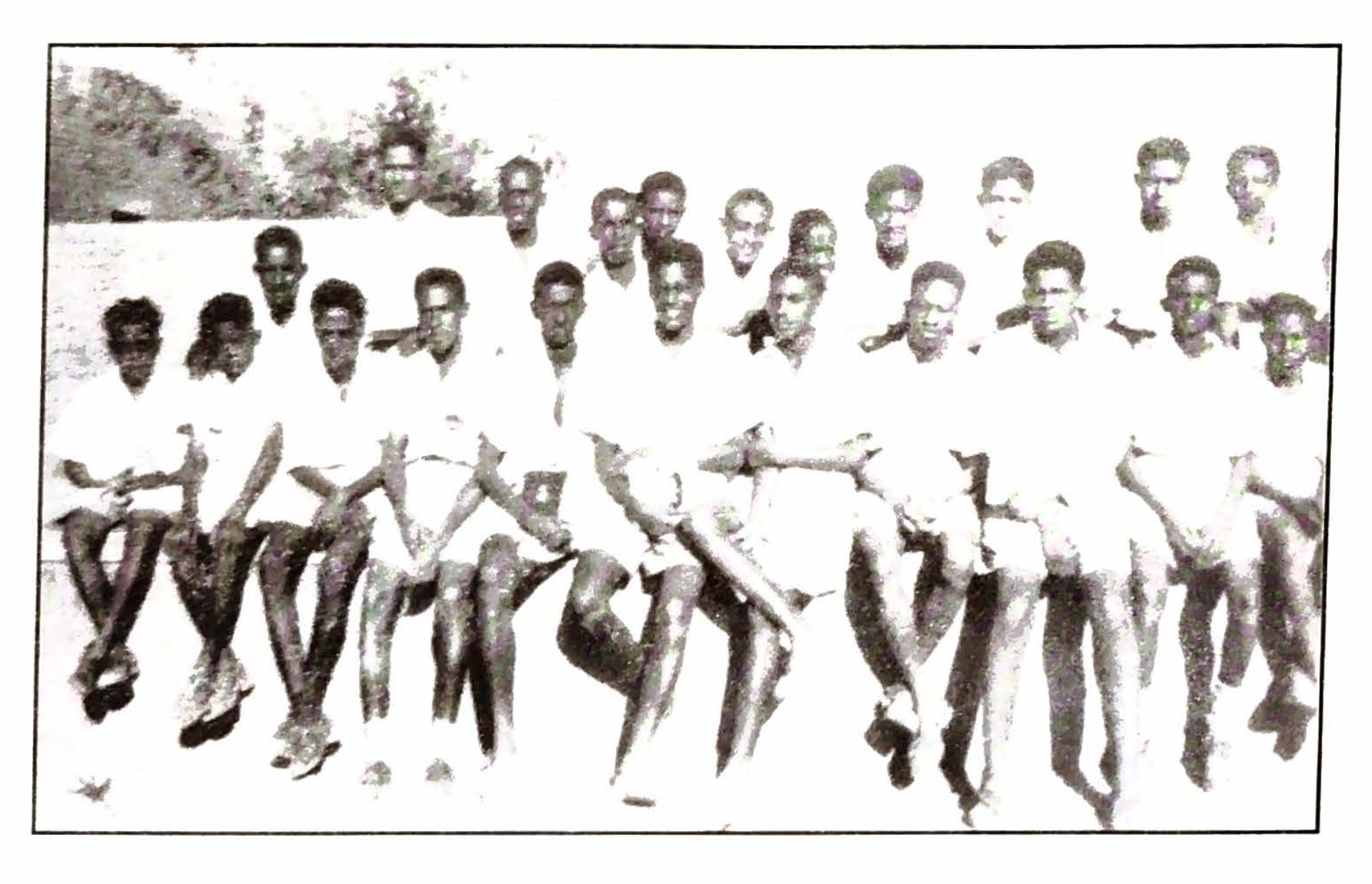
للشيخ بابكر بدري وللسودان وان مجرد ذكر تلك الأيـام والأصدقـاء هنـاك تعـني لـه الكثير والكثير جدا ورجعت طوال الطريق استرجع أسماء أصدقاء الوالـد أتذكـر مـا يحملونه له من حب وكيف كان الاحتفاء بنا في زيارتنا إلى أثينا والتي اجري فيها الوالد عملية جراحية في عينيه وكيف أتى تاسوس زيزس من الخرطـوم ليكـون مـع صديقـه شيخ دفع الله في تلك اللحظات. أما احتفال آل بابا دام بنا فيقصـر قلمـي عـن وصفـه. جزاهم الله وجزي كل أصدقاء الوالد خيرا لما قدموه لنا.

في ذلك اليوم في ريفون عقدت العزم على أن اصل اصدقاء الوالد ما اسـتطعت إلى ذلك سبيلا. وظللت علي صلة بالعديد منهم وكان أخرهم جـون كتـسراس صـاحب الأجزخانة الوسطى وكان الوالد يناديه باسم " يني " وظلت صلتي بـه متينـة خاصـة أننا أصبحنا زملاء في مهنة الصيدلة .

وهكذا ظلت الأحفاد نـهرا خالدا ننهل منه الدروس والقيم والمعـاني السـامية ربمـا إلى آخر العمر .



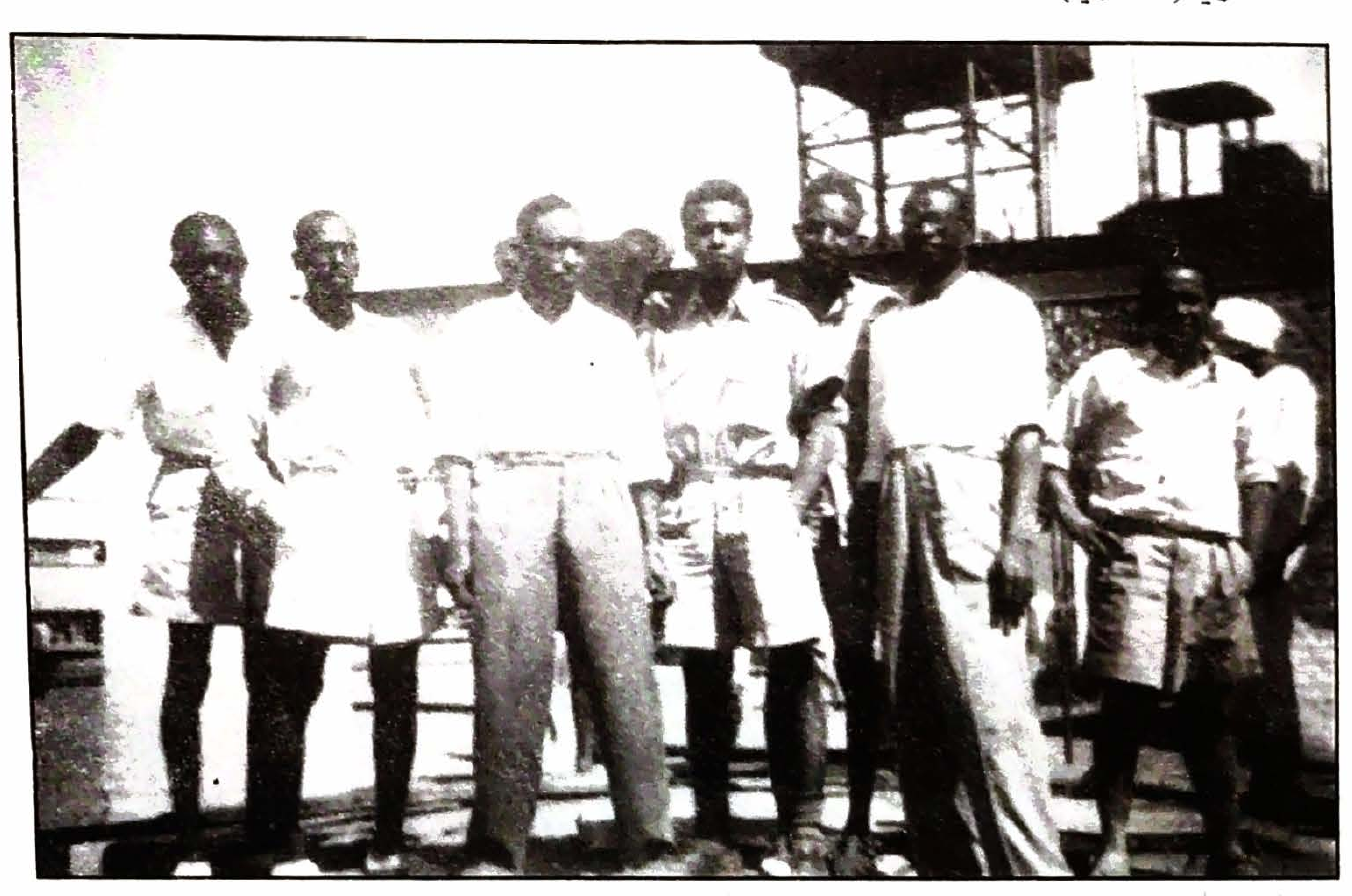
(١) الشيخ بابكر بدري يحيط به زوار من رجال التعليم المصري ويظهر الأستاذ فتحي امبابي وطلاب من المدرسة الوسطى ومن القسم الثانوي يظهر التجاني فضل الله وعلي شبيكة ومعاذ السيد ومحمود كيله وخلف الله محمد فضل الله



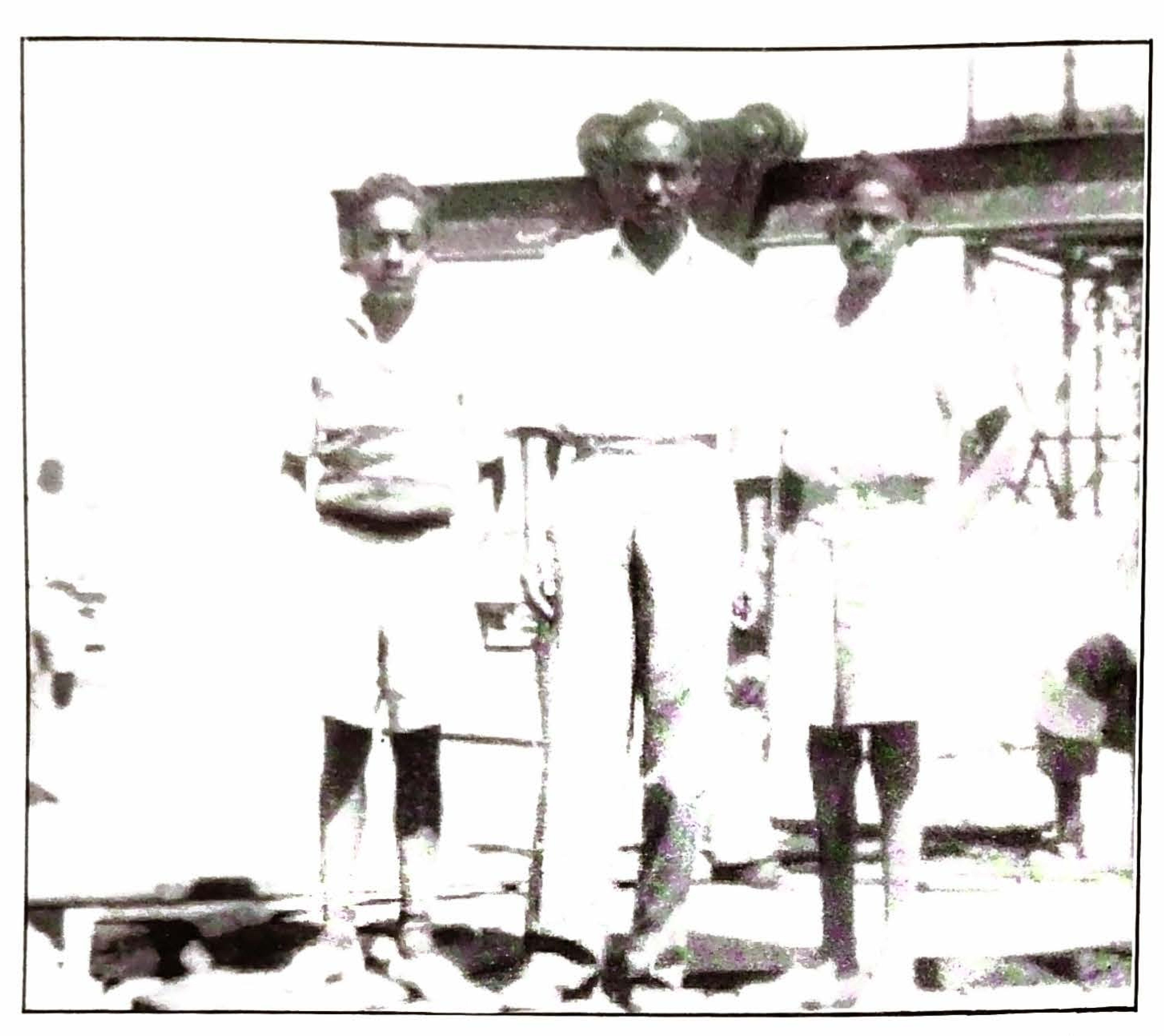
(٢) مجموعة من الفصل الأول بثانوي الأحفاد



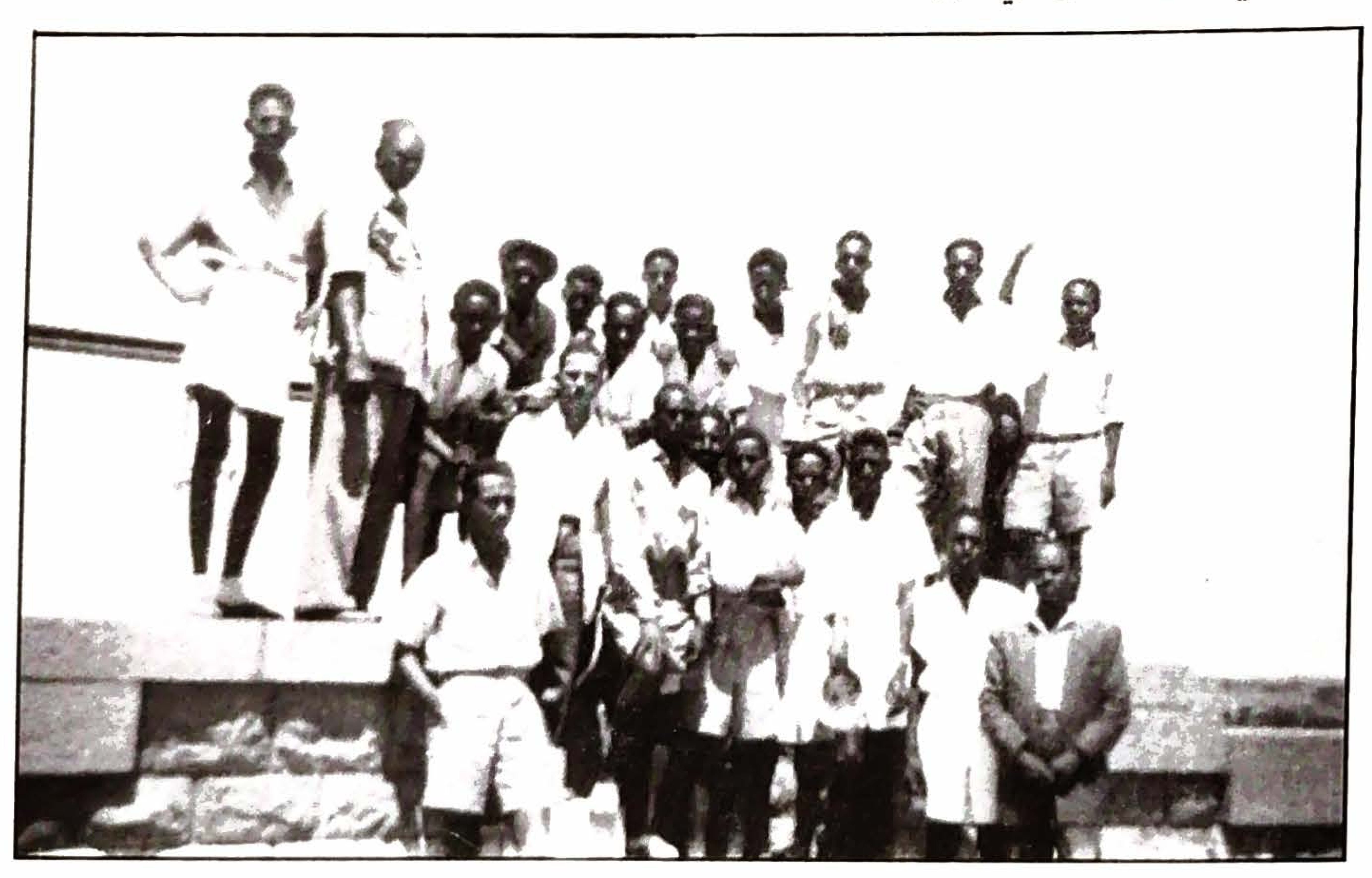
(٣) مـجـمـوعـة مـن زمـلاء رحـلـة الأبـيـض ويـظـهـر الأسـاتـذه أحـمـد عـبـد الله المغربي ـ وحـسـن السحتري (مصري).



(٤) في الطريق إلى مصر في احدى محطات القطار يظهر الفنان عثمان حسين والموسيقار عبد الفتاح الله جابو مع الفاتح عبد الله حامد ـ وابو بكر عبد الله حامد ومحمود كيله ومحمد عبد الفراج.



(٥) في احدى محطات السكة الحديد في الطريق إلى حلفا يظهر الفنان عثمان حسين بين التجاني فضل الله وعلي شبيكة.



(٦) عدد من مجموعة رحلة مصر في أسوان ويظهر معهم العم عبد الكريم بدري.



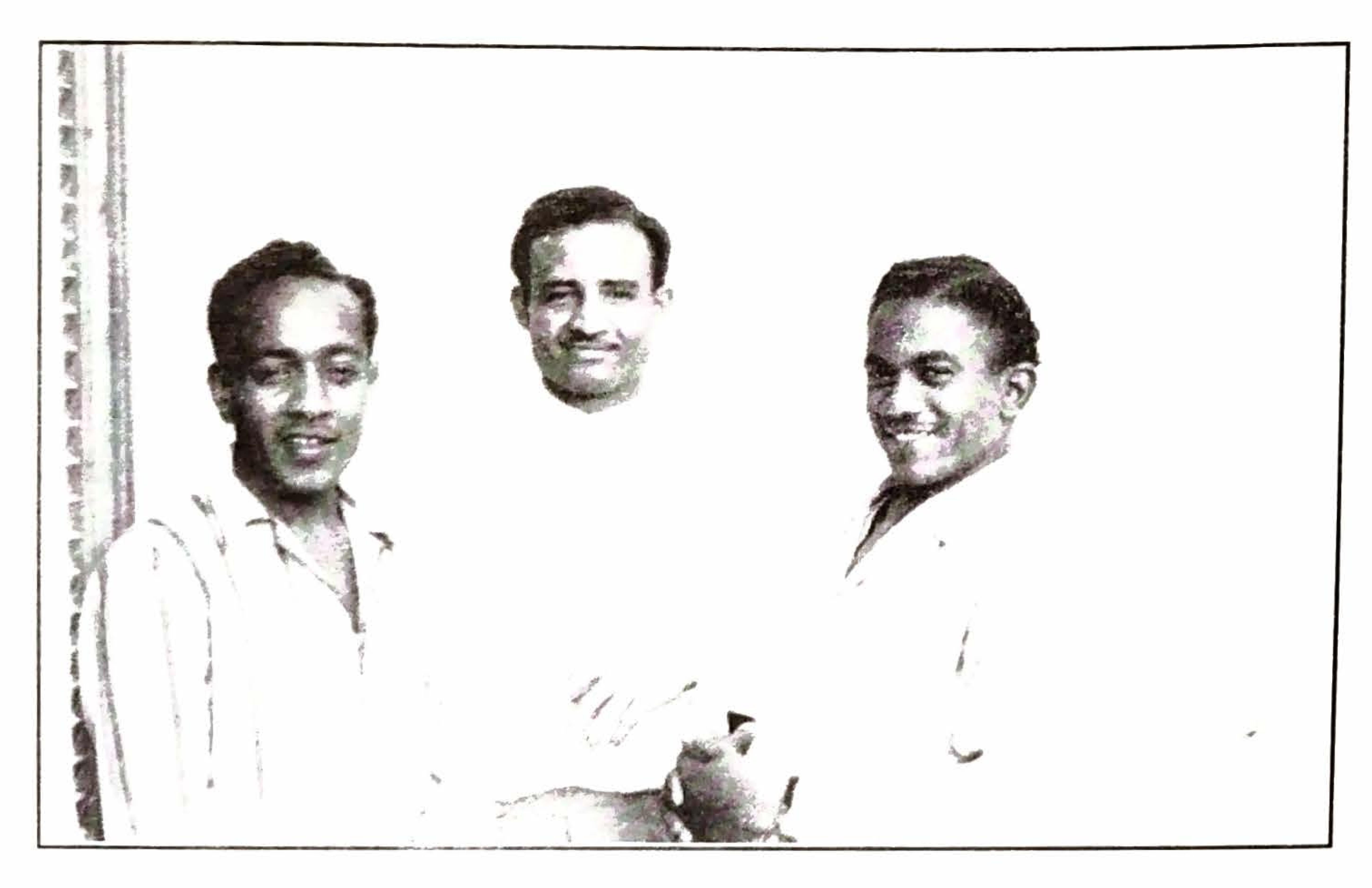
(٧) المؤلف مع أبو الهول عند الوصول إلى القاهرة.



(٨) جانب من احدى حفلات زواج الملك فاروق من ناريمان ويظهر فيها ضمن المجموعة الفنان سيد خليفه الذي كان وقتها طالباً بمعهد الموسيقى العربية بالقاهرة.



(٩) الحفل الذي اقيم في قصر القبه من سلسلة احتفالات الزواج الملكي ويرى الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر آنذاك يتوسط المجموعة وبجانبه المؤلف.



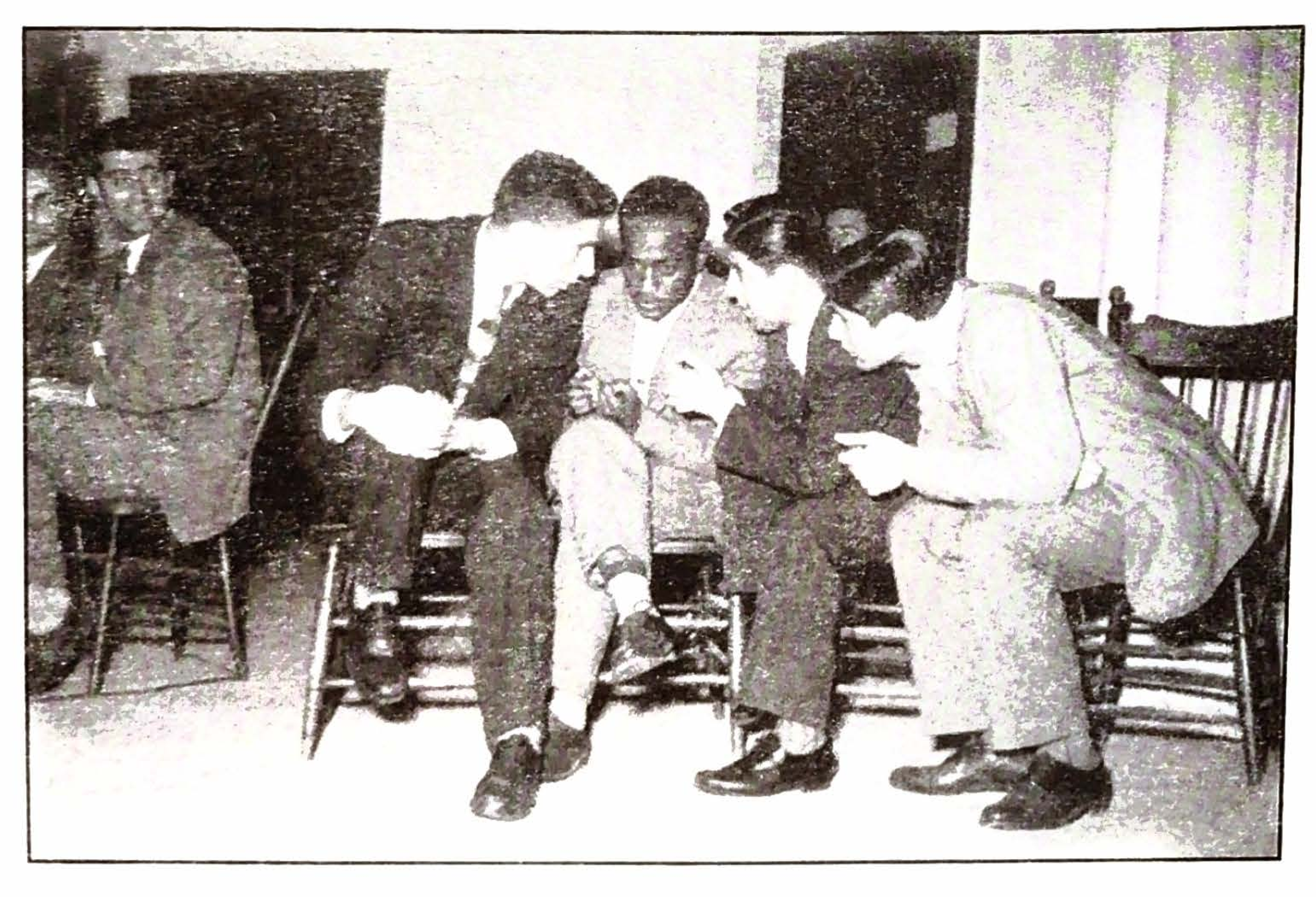
(١٠) التقطت هذه الصورة في القاهرة ابريل ١٩٥٧ يتوسط فيها الشهيد طيار عز الدين عبد القادر كل من التجاني فضل الله والمؤلف حيث كان الشهيد يقضي كورس في الطيران قبل استشهاده بحوالي سبعة أشهر.



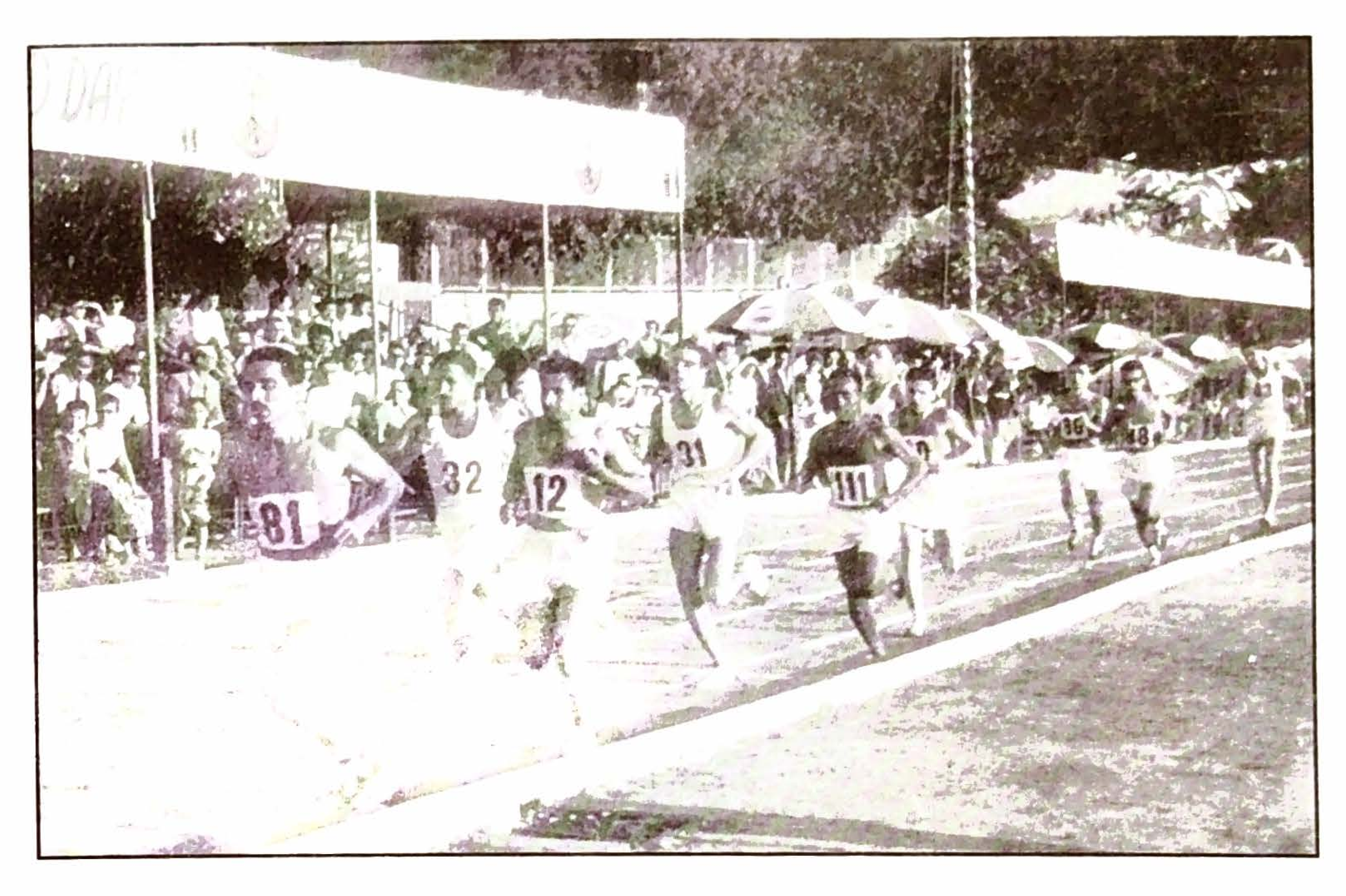
(١١) لقطة في أحد شوارع بيروت في السنة الأولى بالجامعة الأمريكية ومعي سليم عيسى.



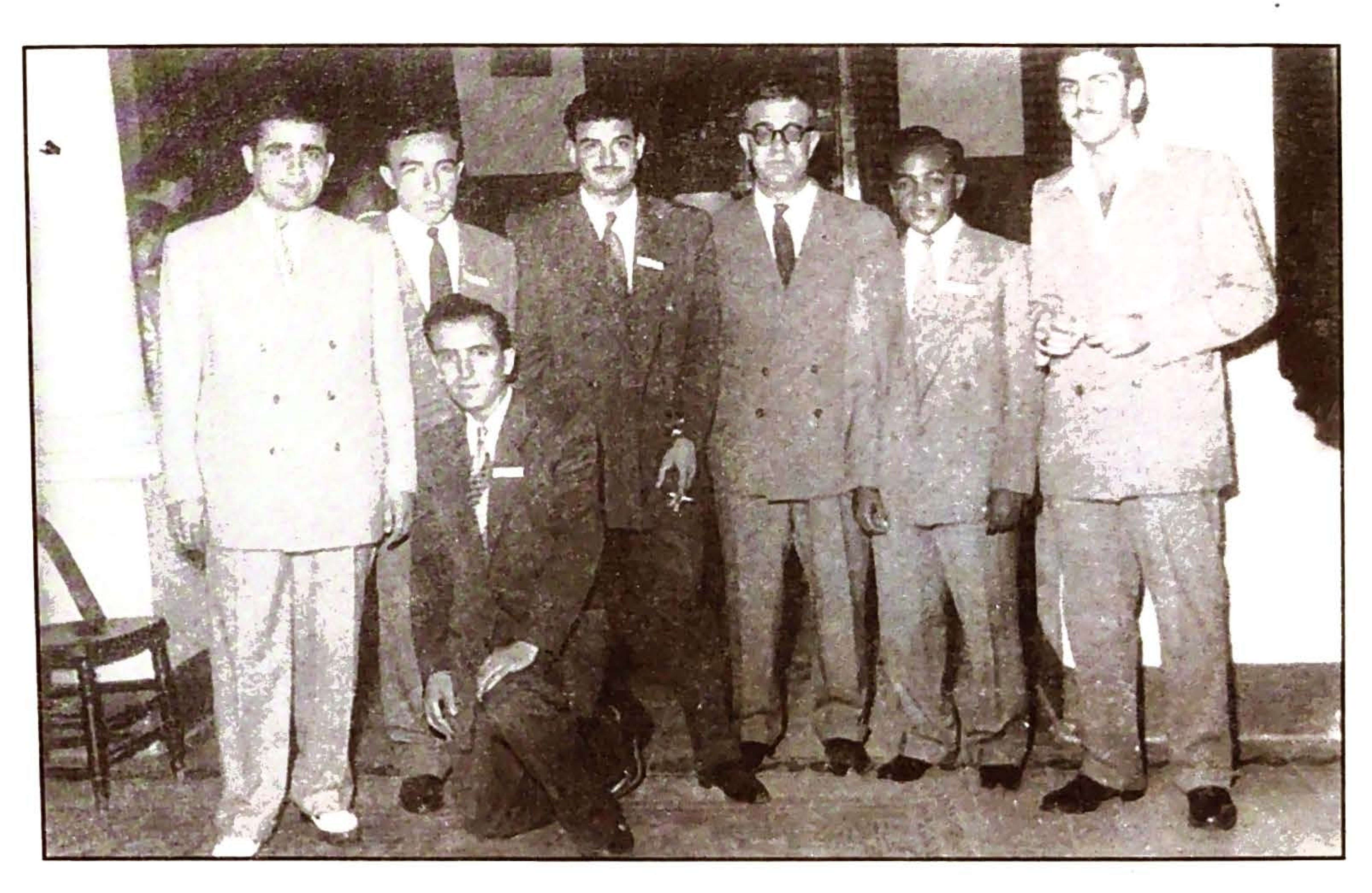
(١٢) اعضاء من فريق كرة القدم بكلية الصيدلة بالجامعة الأمريكية - المؤلف في اقصى اليسار وبجانبه زياد حبش كابتن فريق الجامعة.



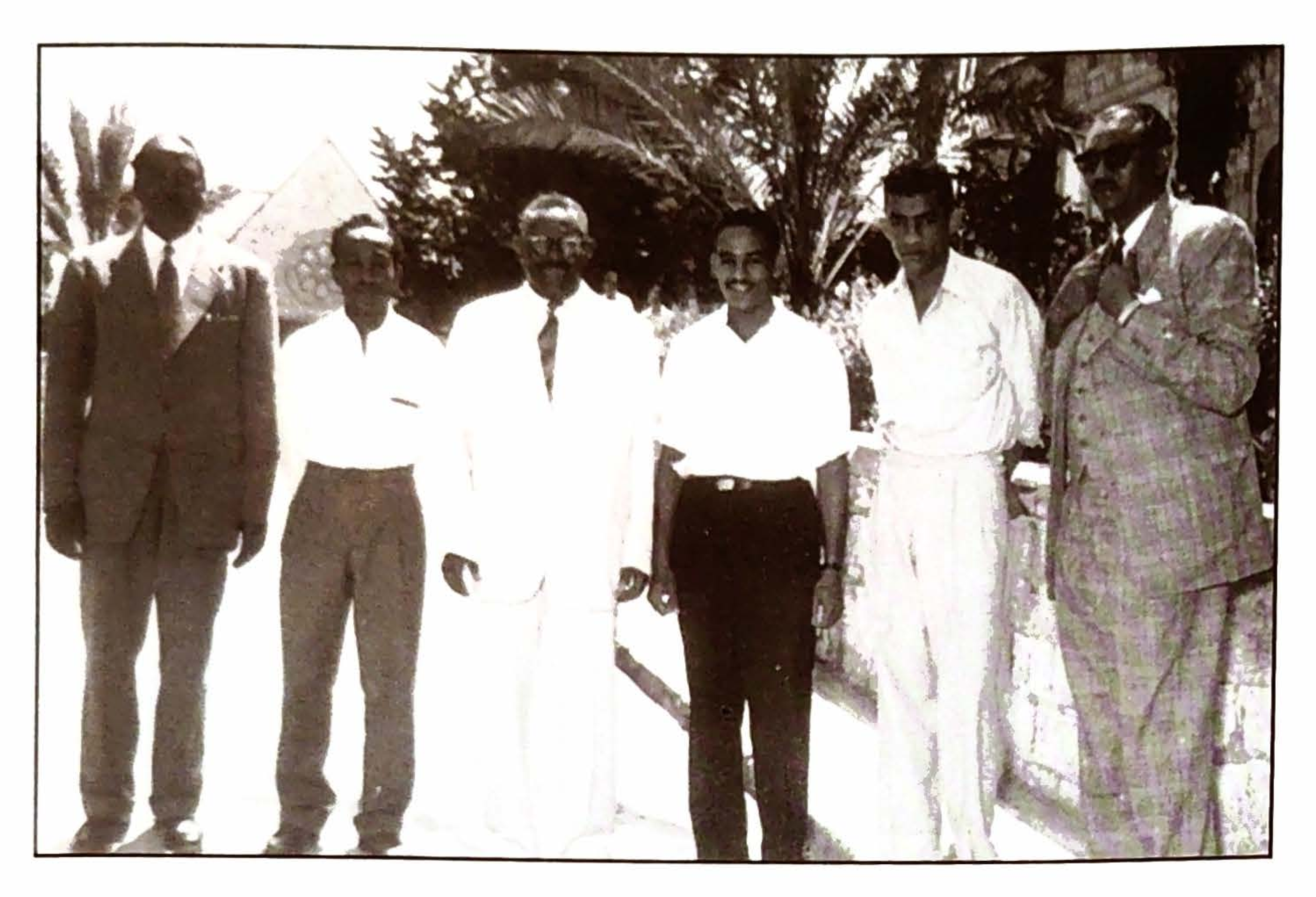
(١٣) ضمن فريق مسابقة المعلومات العامة التي كانت تقام دوريا بالجامعة.



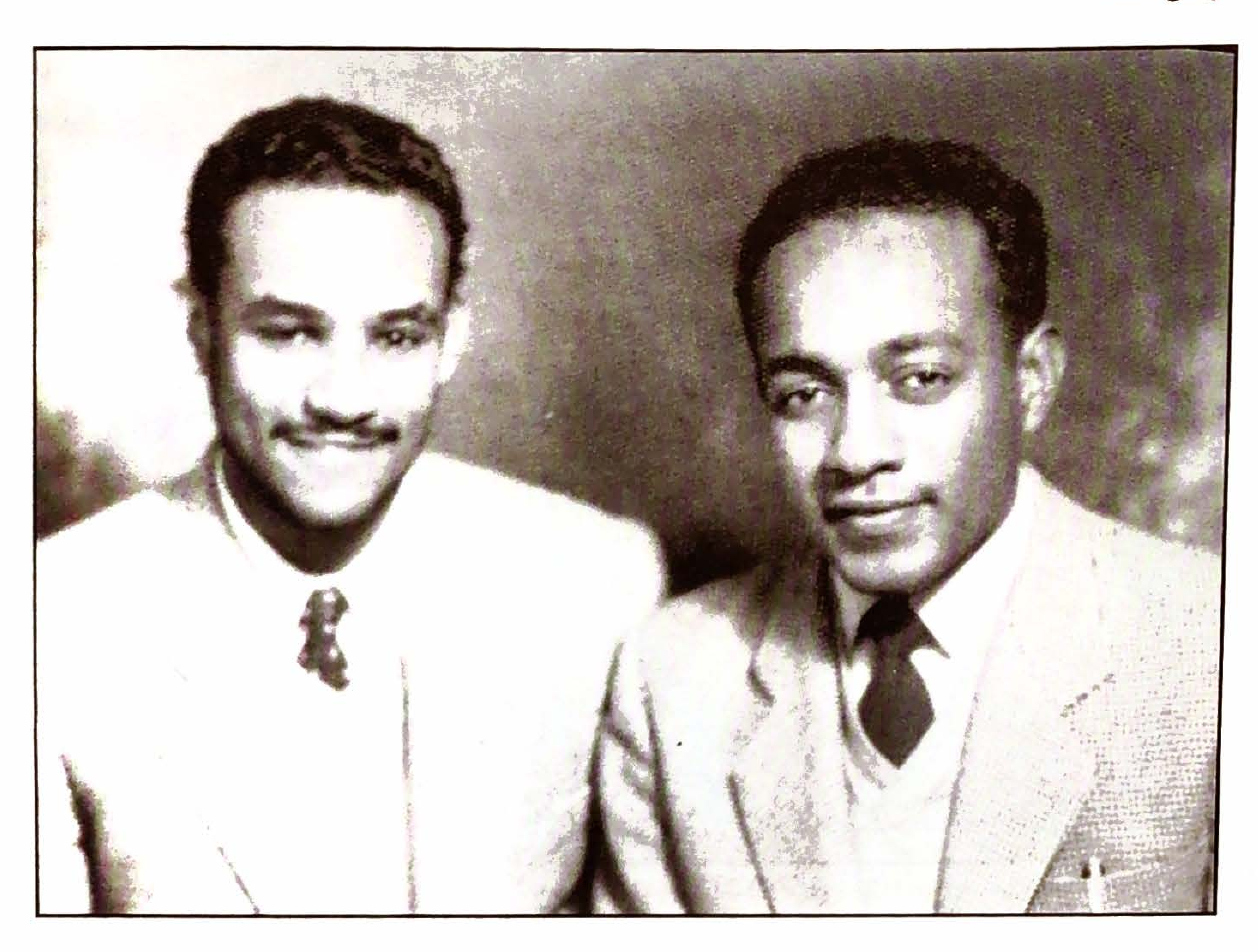
(١٤) سباق ١٥٠٠ متر في اليوم الرياضي السنوي بالجامعة والمؤلف رقم ١١١ ممثلا لكليات الطب.



(١٥) لقطة من احدى حفلات كلية الصيدله ويرى من اليمين جورج بهو - ثم المؤلف وبروفسور حداد وقاسم الدباح - وآدم جراح والأستاذ عثمان كتفاني.



(١٦) في زيارة لبيروت لقطة في الجامعة الأمريكية من اقصى اليمين يظهر مبارك زروق وسليمان أحمد بدري - مالك بابكر بدري - الزعيم اسماعيل الازهري - علي شبيكة - حسن عوض الله.



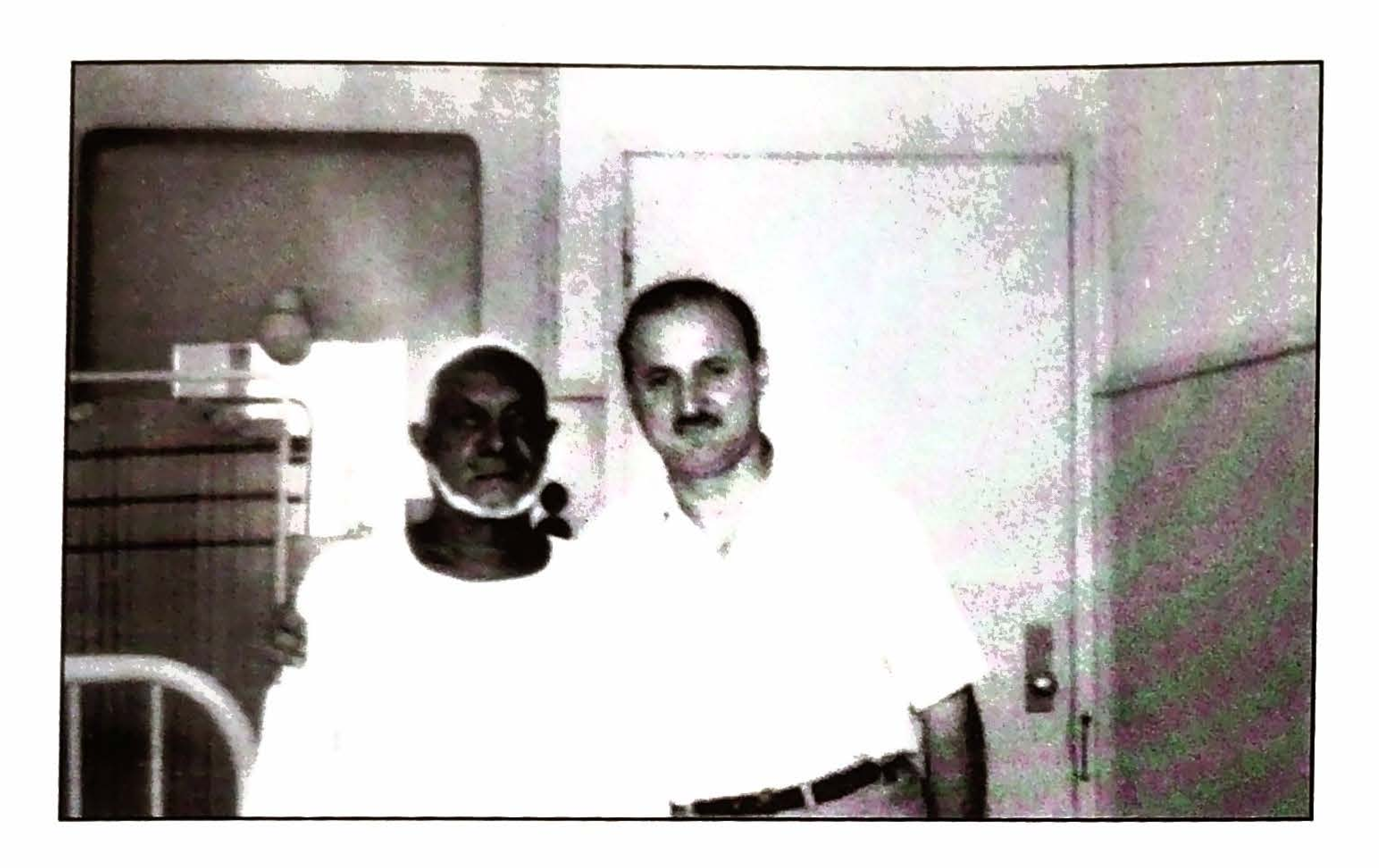
(١٧) مع مالك بدري في الجامعة.



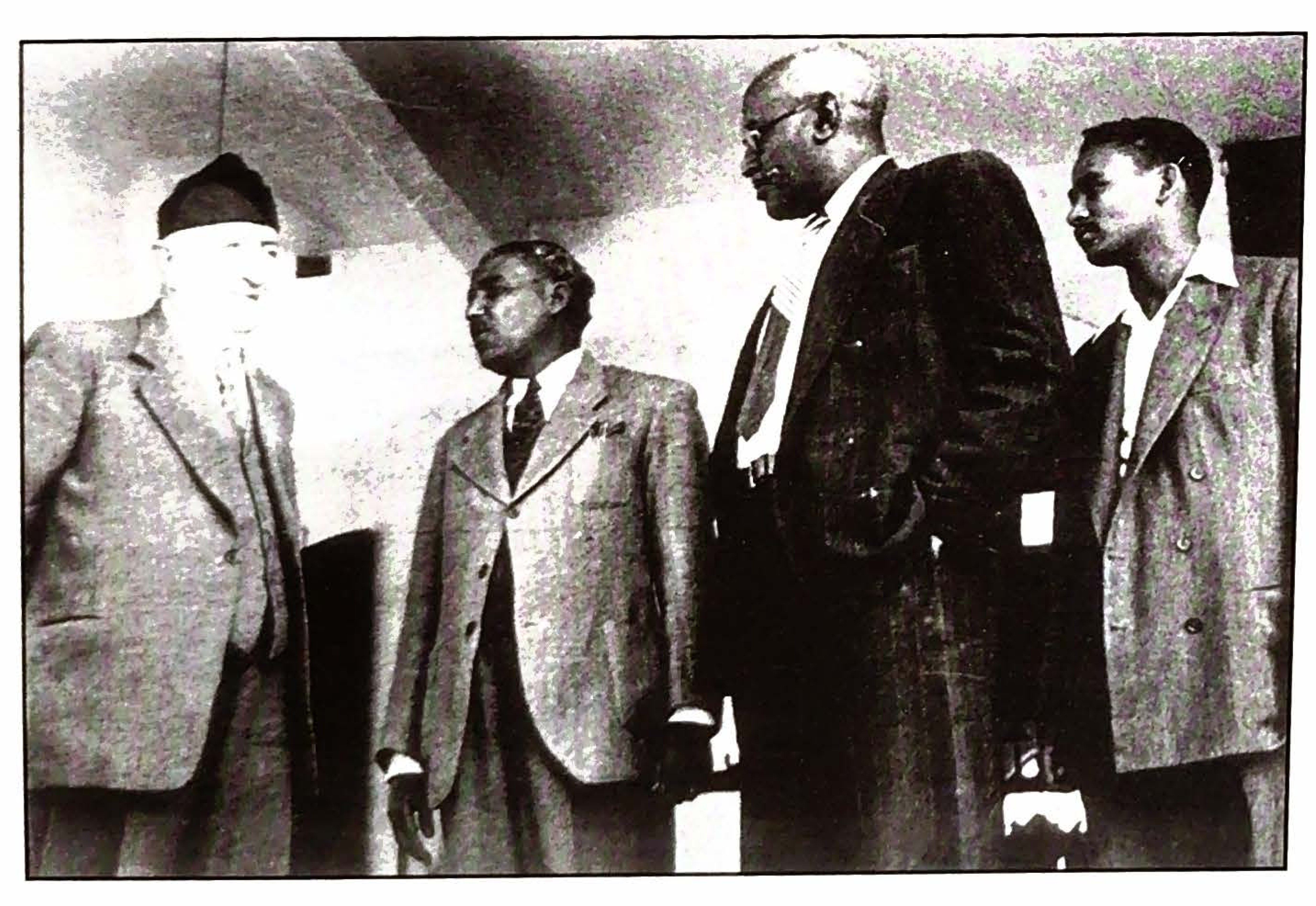
(١٨) في ضاحية كيفسيا قرب أثينا الوالد مع اصدقاء من آل بابا دام.



(١٩) الوالد مع صديقه آدم بابا دام بمنزل الأخير في اثينا باليونان.



(٢٠) لقطة بمستشفى افينجلز موسى بأثينا يبدو الوالد مع صديقه تاسوس زيزس الذي حضر من الخرطوم خصيصا ليكون بجوار الوالد اثناء اجراء عملية الماء البيضاء بالعين.



(٢١) لقطة في بلدة ريفون لزيارة الدكتور يوسف نعمة ويرى مالك بدري والأستاذ عبيد عبد النور والعميد يوسف بدري ودكتور يوسف نعمة صديق الشيخ بابكر بدري حين كان يعمل في السودان.

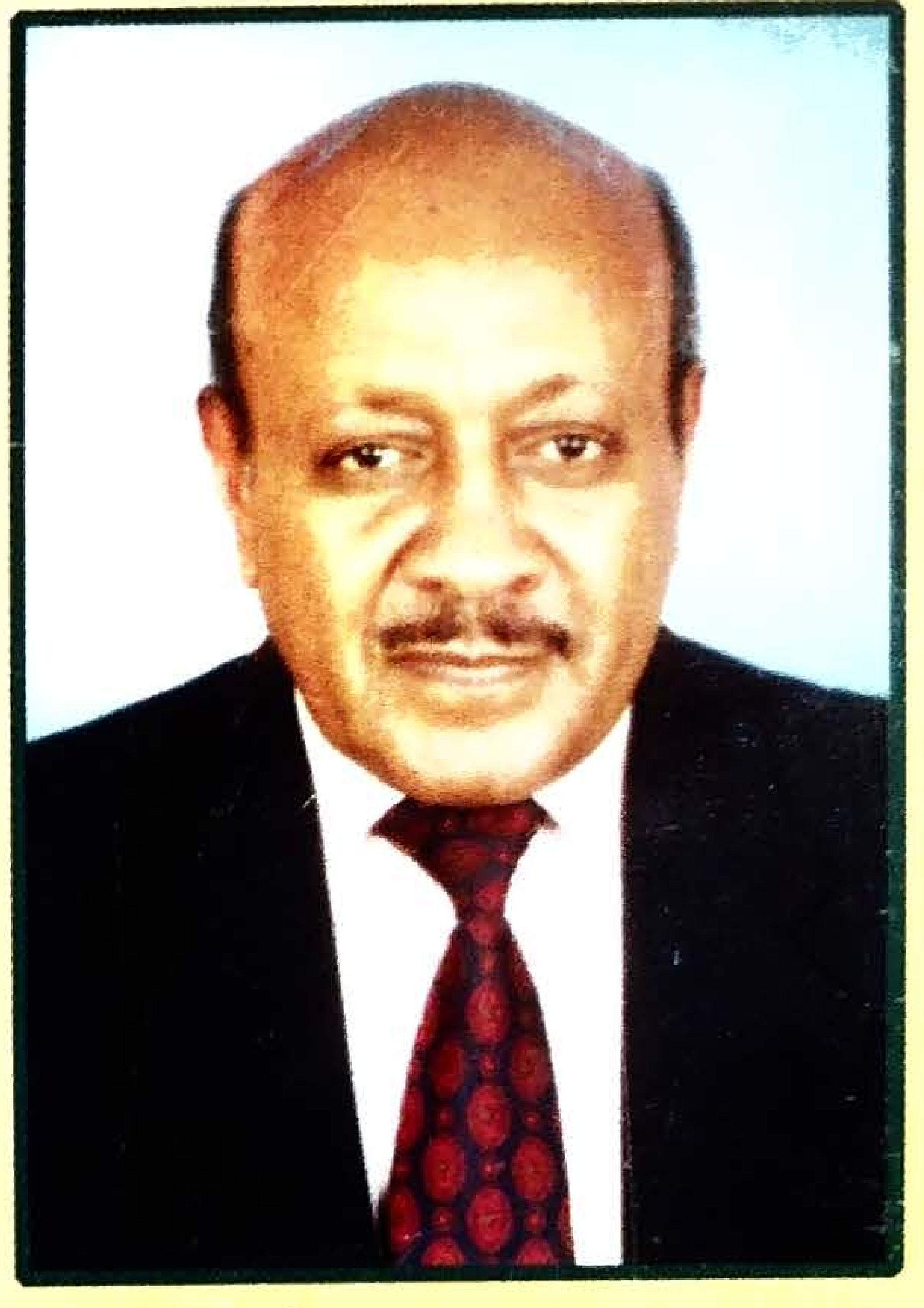


(٢٢) احتفالا بالبروفسر أمين حداد في الخرطوم في الصورة الصيادلة من خريجي الجامعة الامريكية في بيروت من اليمين إلى الشمال د. شفيق لوقا ـ والمؤلف و د. جوزيف قرنفلي ـ بروفسر أمين حداد ـ د. ابراهيم قاسم مخير ـ د/ وليم لوقا.

علمتني الأحفاد

■ من حالفهم الحظ وعاصروا مربي الأجيال الشيخ بابكر بدري والعميد يوسف بدري وتلقوا مبادئ التعلم والمعرفة والتربية على يديهما أو عملوا بالاحفاد لفترة من حياتهم سيجدون في هذا الكتاب متعة ورجعة إلى عهود من أجمل أيام العمر.

ولا أشك انه سيرجع بذاكرتهم إلي تجارب وأحداث لمسوا من خلالها عبقرية هذين الرجلين وأثرهما في التربية والتعليم طوال القرن العشرين وربما دفع بعضهم ان يسجل ويوثق لتلك الأحداث بمثل هذا الكتاب. واللذين لم يسعدهم الحظ بالتواجد في الأحفاد لفترة من حياتهم - أعدهم بنزهة جميلة في حقل التربية والتعليم وفن الحياة حرصت ان أحصر أحداثها في تجاربي الشخصية ومعايشتي لها منذ التحاقي بروضة الأحفاد إلى تخرجي من المدرسة الثانوية وحتى اثناء دراستي الجامعية، تقيداً بالنهج العلمي في البحث والتوثيق.



لا يزال هذا النهر العظيم - نهر الأحفاد - يواصل تدفقه علماً وابداعاً وفناً منذ بداية القرن العشرين - وسيظل يفيض عاماً بعد عام يهب السودان الخصب والنماء في شتي مجالات الحياة. ■■